

اختراع العزلة
3.10.2017
پول أوستر
ترجمة أحمد العلي
أثر

بول أوستر

اختراع العُزلة

مذكرات

ترجمة

أحمد العلي

تقديم

عبد الله السفر



اختراع العُزلة

بول أوستر
اختراع العزلة
ردمك: 978-9938-88043-4
الطبعة الأولى 1437/ 2016



المملكة العربية السعودية- الدمام
تلفون : 00966505774560
الموقع الالكتروني : www.darathar.net
Email: info@darathar.net

إلى صاحبي عبدالوهاب العريّض

تخيّلت كتابًا ضخمًا تكتبه عن فقيدك.. أثقل على كواهل الرجال من كتب الأديان كلها. كتابًا من صفحة واحدة وكلمتين: أنا أب.

القبض على أفق الأب

عبدالله السفر

الأبناء نيام، فإذا مات الآباء انتبهوا.

انتباهٌ على قبضةٍ توشك أن يفرط منها عمرٌ وذاكرة وجذور. يقظةٌ تريد أن تلحق؛ أن تستنقذ ما يسعى الزمن إلى مواراته إلى الأبد كأنه لم يكن.

لئلا يبسط النسيان رداءه ويجرّ ذيوله، لا بدّ من عودةٍ إلى الوراء ونفْض الأدراج وزيارة الأماكن القديمة؛ تحريك الصورة وإراقة الضوء والبحث بين الظلال لعلّ الأب لم يزل هناك.

لعلّه في حومة تاريخه وذاكرته يبعث معنى ويرسل فهماً لما غاب أو أُسِيءَ تفسيره.

لعل الابن يعثر على معناه هو ويرتطم بحديد تجربته؛ مأزق وجوده وحصْره؛ التربة التي تجعله يعيد سيرة الأب على نحوٍ مقلوب ليكون الاثنان في صدى الجذر والثمرة؛ يلد الأبَ مُطهّرا من بطن الحوت، ويكسب موقعاً مناسباً ومنصّةً مواتية لإطلاق إبداعه في فضاء جديد.

على نحوٍ مفاجئ ودون إرسال إشارة تمهيد لمغادرة العالم يموت الأب. يسدل غيابه على حياة الابن. وبموته، الأشبه بضربة حارقة أو قطْعٍ في اللحم من الداخل، يجري استدعاء الذاكرة ومُساءلة الوثيقة

لإعادة بناء صورة الأب طبقا لظرفه الاجتماعي والاقتصادي والثقافي ليكون ما عليه من وضْع ومن صفاتٍ مثّلت حاجزًا ليس بينه وبين أفراد عائلته، بل بينه وبين العالم نفسه. يقيم جدار عزلته وانبتاته عمّا حوله - إلا في ومضاتٍ نادرة تؤكّد العزلةَ ذاتها - ويكاد أن يصبح غير موجود فارضاً إهماله وعدم تعاطفه ولا مبالاته ولا اكتراثه، جاعلا منها سياجه الواقي لا يتورّط في مواقف ولا في مشاعر ولا يشتبك بما هو حياة وعلائق بشريّة.

يرفع الأب مصدّاته ويمتّن من أسواره. ينعزل لا ليتجّه نحو الداخل ويتأمّل ويستكشف ويستبصر ذاته. إنما ينعزل إلى درجة الاختفاء والغياب.

يعكف الابن حفراً في التذكارات والزوايا والآثار العالقة تحمل حكايات الأب مع الأسرة ومع العالم من حوله. يقصر عن دوره الإنساني. مستنكفاً عن تمرين حوّاسه مع المتاح من المتع. حالةٌ من جفاف الطبع تبقيه في منأى من التأثّر والتواصل إلا طبقاً لجرحه القديم، ورضّته النفسيّة التي تكبّدها في فجر حياته وهو بعد لم يزل طفلا فصار إلى الإجداب العاطفي والتخفّف من أن يكون له أثر.

يسبر الابن السرَّ المخبوء وعقابيله. يتوقّف مدقّقاً بذاكرة لا يندُّ عنها شيءٌ ولا يغيب. كما لو كان هذا التدقيق والنبش في خزانة الذكريات وبيان الأعطاب الوالدية؛ صقلاً لأبوّةٍ يريدها أن تتنقّى من الأخطاء وتبرأ منها؛ يريد أن يتحقّق له ((القبض على أفق الأب)).

فضْح العائلة

أحمد العلي

غافل زوجته، الكاتبة سيري هوستفيدت، أمامنا على المسرح. لم يكن هناك كرسيّ واحد فارغ. وبرغم هذا الحشد، تركنا جميعا، وغافلها أمامنا. عندما حان وقتها لتقرأ نصّها في هذه الأمسية المشتركة النادرة، صادف أن هذا المسرح هو المكان الذي رآها فيه لأوّل مرّة منذ ثلاثين عاما، وفي نفس التاريخ أيضا، اقترب منها خلسة وقبّل رقبتها الطويلة. قبّل تلك الصدفة.

ابتدأ بول أوستر حياته الأدبية بكتابة الشعر. سكن باريس لفترة طويلة، خالط دوائرها الأدبية وشرب الشعر الفرنسي صافيا من منابعه. وعندما توفي والده (المعنيّ في هذه المذكرات)، انكسر الشّعر عند أوستر، ووجد نفسه، صدفة، يكتب سردا بطريقة لم يختبرها من قبل؛ عن أبيه وعن نفسه وعن طفله. الحالة الشعريّة في هذا النص تأتي من عمقه، من الأرض التي يحاول جاهدا قطار السّرد أن يقطعها. هو أمر جليل أن تكتب عن أبيك. لكن الأجلّ من ذلك هو أن تخترعه من جديد، أن تقابله، وتدعوه إلى مقهى، وتسائله عن خياراته في الحياة وأسبابه وخلاصات عمره. لا مكان هنا للفقد أو الدمع أو الحنين. لا مكان للذاكرة. الأرض كلّها ملعب للخيال. أن يكون عمرك ثلاثين عاما، وعمر أبيك ثلاثين عاما، وتجلسان للحديث في زمن لم يعرفك هو فيه، لم ينجبك حتى. أليست هذه إحدى صور الجنة، الجنة التي لا يعثر

الأحياء على شيء منها سوى على بورتريهات لغويّة؟.

اعتبرت عائلة أوستر اليهوديّة هذا الكتاب فضيحة للعائلة. أنّبوه ووقفوا ضده وصرّحوا للجرائد بأنه يكذب، وأنه «اخترع» تفاصيل الكتاب. لم تكن ردود الفعل هذه مهمّة بالنسبة لي لترجمة هذا النص، ما همّني هو الشجاعة. شجاعة الفضح النبيل. فضح العائلة. تلك الحيوات التي لها في جسدك عِرقٌ ما. فعلى الرغم من نُبل الاعتراض على الفساد السياسي والاجتماعي والاقتصادي، إلا أن تلك المجالات لا تعطي صورة دقيقة عنك. العائلة هي صورتك. امتحان القُربى قاس، جرّبته بنفسي. لا تمت قبل ذلك، قبل أن تحبّهم واحدا واحدا، وتتفهّم ذاك الشعور الغامض من الودّ الذي يجول في داخلك نحوهم ولا تعرف له سببا. كيف لك أن تتأكّد من حقيقة مجيئك إلى الدنيا، عَظمةً عَظمة، دونهم؟ أليس وجهك تركيبًا من وجوههم جميعا؟.

نيويورك

يوليو ٢٠١٥

بورتريه لرجل غير مرئي

((استعد، في بحثك عن الحقيقة، لما قد يباغتك؛ فهي صعبة المنال.
وبمجرّد أن تقبض عليها، ستقف ناظرا إليها وهي تنسرب من بين أصابعك...))

هيراقليطس

يحدث، في أحد الأيّام، أن تعثر على الحياة أمامك؛ رجلٌ مثلًا في أفضل صحّة، ليس مسنًّا على الإطلاق، ولم يعرف الأمراض يومًا. يبدو له أن كلّ شيء حوله باقٍ على حاله وسيبقى هكذا إلى الأبد. يمضي من يوم إلى آخر معتنيًا بشؤونه الخاصة، حالمًا بالحياة الممتدة أمامه دون نهاية. وحينها، بغتة، تعثر على الموت؛ رجلٌ يتيح لتنهيدة صغيرة أن تخرج منه، ثم ينهار على مقعده؛ إنّه الموت. تلك البغتة لا تترك متّسعا لاستيعاب ما حدث، لا تُفسح للذّهن فرصة للبحث عن كلمة قد تواسيه. ما من أمرٍ باقٍ في توالد حياتنا سوى الموت؛ هذه هي الحقيقة التي لا يمكن تبسيطها؛ إننا فانون. نستطيع أن نرضى بالموت وأن نسلّم بوقوعه بعد طول مرض، وأحيانًا نعزوه إلى القدَر في الحوادث العرضيّة. لكن أن يموت رجل دون سبب واضح، أن يموت لأنّه رجل وحسب، فهذا ما يقرّبنا من الحدّ الخفيّ بين الحياة والموت، حتى لا يعود بوسعنا أن نعرف على أيّ جانب منهما نحن. تصير الحياة هي الموت، ويبدو وقتها لكأنّ الموت قد امتلك الحياة إلى الأبد. الموت دون إنذار. أو بكلمات أخرى: تهمد الحياة، وقد تفعل ذلك في أيّة لحظة.

وصلني خبر وفاة أبي قبل ثلاثة أسابيع. في صباح يوم الأحد ذاك، كنت في المطبخ أعدّ الإفطار لإبني الصغير دانيال، وزوجتي في الطابق العلوي لم تنهض من الفراش بعد، دافئة تحت الأغطية، تتنعّم بساعات إضافيّة من النوم. كان الشتاء في البلاد عالمٌ من السكون، من دُخان الحطب، ومن البياض. أمّا ذهني فقد كان مزدحمًا بتصوّرات كثيرة حول

قطعة أدبيّة، أمضيتُ ليل البارحة كلّه وأنا أكتبها، وقد كنت أتطلّع إلى الظهيرة، وقت أن يصير بإمكاني متابعة العمل عليها. ثمّ رنّ الهاتف، وأدركت فورًا بأن هناك خطْبًا ما. لا يهاتفك أحد في الثامنة صباحًا من يوم أحد إلا لإيصال أخبار لا يمكن تأجيلها؛ الأخبار التي لا يمكنها الانتظار هي دومًا أخبار كريهة.

رنّ الهاتف، ولم أستطع التفكير حينها في أيّ أمر جيّد.

مبكّرًا، قبل أن نحزم حقائبنا استعدادًا للقيادة زهاء ثلاثة ساعات نحو نيوجيرسي، حيث منزل العائلة، عرفت أنني لابد وأن أبدأ فورًا بالكتابة عن أبي. لم تكن لديّ أيّة خطّة مسبقة للكتابة، ولا تصوّر محدّد عن هذا الذي عزمت عليه. لم أستطع استدعاء تلك اللحظة التي اتخذت فيها هذا القرار، فقد كان هناك ببساطة، حتميّة لا مفرّ منها. إنه التزامٌ بدأ بفرض نفسه عليّ منذ اللحظة التي عرفت فيها بأمر الوفاة. وفكّرت: رحل أبي، وإذا لم أتصرف بسرعة، فستتلاشى حياته بأكملها معه.

بالنظر إلى الوراء الآن، بعد ثلاثة أسابيع على الوفاة، أرى أنّ ردّة فعلي حينها كانت مريبة. خِلتُ دومًا بأنّ الموت سوف يُفقدني القدرة على الشعور، سيشلّني بالأسى. أمّا الآن، وقد حدث ما حدث، فأتذكّر أنني لم أذرف دمعًا، ولم أشعر بالعالم يتهاوى من حولي. ويا للغرابة، لقد كنت مستعدًّا بشكل لافت لتقبّل هذا الموت على الرغم من بغتته. إن الذي شوّشني حقًّا كان أمرًا آخر، أمرًا لا علاقة له بالموت أو ردّة فعلي نحوه:

اكتشفتُ أنّ أبي لم يترك وراءه أيّ أثر.

لا زوجة لديه، ولا أسرة تعتمد عليه، ولا وجود لأيّ أحد قد تتبدّل حياته إن غاب. أمّا أصدقاؤه المتناثرون، فلربما طالتهم صدمة قصيرة لا أكثر جرّاء إفاقتهم من غفوتهم: بدأ الموت يتنزّه بينهم، وقد أقدم على خطف صديقهم. وربما عاشوا فترة حداد قصيرة، وانتهى كل شيء بعدها. ففي النهاية، ستبدو الحياة كما لو أن أبي لم يتنفّس فيها يوما.

إنه دائم الغياب، منذ ما قبل رحيله، فقد اعتاد القريبون منه على تقبّل عزلته واختفائه عنهم منذ وقت بعيد، وعلى اعتبار ذاك الغياب خصّيصة جوهريّة لوجوده. لهذا، وقد رحل الآن، لن يكون صعبًا على العالم استيعاب حقيقة غيابه الأبديّ. لقد قامت طبيعة حياته بتهيئة العالم لموته، فقد كانت نوعًا من الموت الاستباقي. وإذا ما جاء أحدٌ على ذكره، فسيتمّ ذلك بصورة باهتة، وبصوت خافت لا أكثر.

يخلو من الشّغف نحو أيّ شيء، أو أيّ شخص، أو أيّة فكرة. يعجز عن كشف نفسه تحت أيّ ظرف، أو أنه لا يرغب في ذلك، فقد تمكّن من الإبقاء على مسافة تفصله عن الحياة لكي يتجنب الانغمار في جريانها وسرعة أشيائها. فعلى الرغم من تناوله للطعام، وذهابه إلى العمل، واكتسابه لأصدقاء جُدد، ولعبه للتنس، فإنه لم يكن حاضرًا في كل ما فعل، لم تكن شخصيّته الحقيقية من تقوم بتلك الأنشطة كلها؛ ففي أعماقه شعور ضارب بأنّه رجل غير مرئي، خفيّ عن الآخرين، وعلى الأرجح خفيّ حتى عن نفسه. لو أنني واصلت البحث عنه عندما كان لا يزال على قيد الحياة، لو أنني لم أوقف محاولاتي للعثور على شخصية الأب التي لم يتمثّلها قط. الآن وقد مات، أشعر بأن عليّ معاودة البحث

عنه. لم يساعد موته في عمليّة العثور عليه ولم يعرقلها. الفرق الوحيد الذي حدث هو أن الوقت، بموته، قد نفد مني لأكشفه في حياته.

عاش وحيدًا لخمسة عشر عامًا: عنيدًا، غامضًا، لكأنّه محصّن ضد العالم. لم يكن يبدو كرجل يحتلّ حيّزًا من الفراغ، وإنما ككتلة من حيّز منيع على هيئة رجل. يرتدّ العالم عنه، يتهشّم أمامه، وأحيانًا يلتصق به حدّ التماهي دون أن يخترقه. وحده في كل شيء، ومثل شبح، عاش طوال تلك السنوات في بيت شاسع حيث باغته الموت.

عشنا في ذاك البيت لفترة قصيرة كعائلة- أبي وأمي وأختي وأنا. لكننا تبعثرنا بعد انفصال والديّ: شرعت أمي في حياة جديدة، ومضيت أنا إلى الكليّة، وبقيت أختي مع أمي حتى ذهبت إلى الكليّة هي الأخرى. وحده أبي من مكث هناك. ربما بسبب بند في اتفاقيّة الطلاق ينصّ على أن أمي لا تزال تملك حصّة من البيت، وأنها ستحصل على نصف المال المدفوع متى ما بيع (ممّا جعل أبي يمانع البيع). أو ربما بسبب أنّه يرفض، في سريرته، أن يغيّر حياته (كي لا يبدو للناس أن الانفصال قد أثّر عليه، ممّا جعل حياته تفلت من يديه). أو، ببساطة، بسبب كسله، وفتور في مشاعره منعه من اتخاذ أيّ قرار. لذا مكث هناك، يعيش وحيدًا في بيت كان بإمكانه أن يؤوي ستة أفراد أو سبعة.

كان منزلًا يثير الإعجاب: عتيق، ومبنيّ بإحكام على طراز بيوت تيودور في إنكلترا، ذو نوافذ مشبّكة وسقف صخريّ وغرف ملكيّة. لقد شكّل شراءُ أبي لهذا البيت خطوةً كبيرة في حياته، علامةً على ثرائه.

وعلى الرغم من وقوع البيت في أفضل جوار في البلدة، فإنّه لم يكن مكانا مسليًّا للحياة (بالنسبة للأطفال على الأقل)؛ لقد أثقلتنا عادات اللباقة والكياسة بكثرة المحاذير. وقد كانت مفارقة ساخرة أن أبي قد قضى السنوات الأخيرة من عمره في ذاك المنزل دون انزعاج رغم رفضه الانتقال إليه في البداية؛ فقد تذمّر من ثمنه (إحدى طِباعه الدائمة)، وعندما لانَ أخيرًا على مضض، دفع قيمته نقدًا، كلّها دفعة واحدة، دون رهن ولا أقساط شهرية، وهذه مفارقة ساخرة أخرى. كان ذلك في عام ١٩٥٩، وحركة أعماله التجاريّة على خير ما يرام.

كان رجلًا معروف العادات؛ يمضي إلى عمله في الصباح الباكر، ويعمل بجدٍّ طوال اليوم، ثم يعود إلى المنزل ويأخذ قيلولة قبل العشاء إذا لم يستمر في العمل حتى وقت متأخر. خلال أسبوعنا الأوّل في المنزل الجديد، وقبل أن نُكمل تجهيزه ونعتاد عليه، ارتكب أبي خطأً من نوع غريب؛ خرج في إحدى الليالي من العمل ولم يقُد سيارته إلى المنزل الجديد، بل مضى مباشرةً إلى بيتنا القديم كما فعل لسنوات خلَت؛ أوقف سيّارته على جانب الطريق، ثم دلف المنزل عبر الباب الخلفي، وصعد الدرج، ودخل غرفة النوم، ثم استلقى على الفراش واستغرق في النوم. نام لساعة تقريبًا. ولا حاجة إلى القول بأن سيّدة المنزل الجديدة قد أصابها الهلع عندما عادت وفوجئت برجل غريب ينام على فراشها. ولكن بخلاف المتوقّع، لم يهرع أبي قافزًا للهرب بعيدًا. لقد اتضح في النهاية سوء الفهم، وضحك الجميع بطيبة. لكن، على الرغم من هذه النهاية السعيدة، ليس في وسعي حتى الآن أن أدفع بعيدًا شعوري بأن هذه القصة مُثيرة للشّفقة؛ إذ أنّه أمرٌ ليس بذي بال أن يقود رجلٌ سيّارته خطأً نحو منزله القديم. ولكنه أمرٌ آخر تمامًا، في اعتقادي، ألّا يلاحظ

أنّ هناك ما تبدّل في المنزل! فهناك زاويةٌ من النقاء، من الاستجابة الفطريّة، تبقى فاعلة حتى في أشدّ الأذهان تعبًا وتشويشًا، وتُعطي الجسد حسًّا يحدّد مكانه وما يُحيط به. لهذا، على أحدهم أن يكون غائبًا ولا واعٍ تقريبًا لكي لا يرى، أو على الأقل لا يشعر بأنّ المنزل لم يعد كما كان، وأن المحيط قد تبدّل. إن العادَة، كما تقول عنها إحدى شخصيات بيكيت: ((مفْسدة عظيمة)). وإذا لم يعد الذّهن قادرًا على الاستجابة للدّليل الحسّي، الدليل المرئي والملموس، فما الذي سيفعله عندما يواجَه بالدّليل العاطفي؟.

لم يقم بتغيير أيّ شيء في المنزل أثناء سنوات الوحدة التي قضاها فيه؛ لم يضف أيّ أثاث ولم يزل أيّا منه.. بقي طلاء الجدران على حاله، ولم يبدل أصيص الزهور ولا الأحواض، وحتى أنّه لم يرم فساتين أمي- قام بتخزينها في العليّة. شساعة المكان جعلته في حلّ من تحريك أيّ ممّا يحتويه. ولم يكن ذلك صورةً لتعلُّقه بالماضي أو سعيًا منه للحفاظ على المنزل كمتحف، فقد بدا جاهلًا أتمّ الجهل بشأن حالته الرثّه. إن الذي كان يحكمه هو الإهمال، لا الذكريات. وعلى الرغم من أنه مضى في العيش وحيدًا في ذلك المنزل لخمسة عشرة سنة، فإنه قد عاش فيه كما قد يفعل الغريب عنه. وأكثر من ذلك، صار ما يقضيه من الوقت في البيت يقلّ ويقلّ بمضيّ السنين؛ فقد تناول كل وجباته تقريبًا في المطاعم، ورتّب مواعيده الاجتماعية ليصير مشغولًا كل ليلة في الخارج. بالكاد استخدم المنزل كمكان للقيام بأمرٍ آخر غير النوم. لقد صادف مرّة أنّني ذكرت له، قبل أعوام عدّة، كم جنيت من المال أجرًا على

كتاباتي وترجماتي في العام المنصرم (مبالغ زهيدة بكل المقاييس، لكنها أكثر ما استطعت كسبه حينها). فأجابني فرحًا بأنّه كان يصرف مالًا أكثر من ذلك، فقط لتناول الطعام خارج البيت!. لم يكن المكان الذي عاش فيه هو محور حياته. هنا تكمُن المشكلة. كان منزله محطّة فقط من محطات كثيرة في وجوده القلق، المحلول الوثاق. وكان لهذا الافتقار إلى مكان يرتكز إليه أثر مباشر في تحويله إلى متجوّل دائم، إلى سائح في حياته نفسها، فلا يمكن الشعور أبدًا إلى حاجته للاستقرار.

على أيّة حال، شعرت أن للمنزل جلالة في خاطري وأهميّة كبيرة. وبكلمات أكثر دقة: إن حالة الإهمال التي كان عليها المنزل هي ما يهمني؛ تلك الحالة هي تجسيد لحالة أبي الذهنيّة؛ إنها أعراضها مرئيّةً على البيت وظاهرةً للعيان. حالة الإهمال تلك هي انعكاسٌ ملموس لسلوك أبي الذهني وغير الواعي.. ولولا ذلك لتعذّر اكتشاف الأمر. صار المنزل صورة مستعارة لحياة أبي، استعارة متقنة ومخلصة لعالمه الباطني. وعلى الرغم من أن أبي قد ترك المنزل مرتّبًا كما كان عليه عندما كنّا نسكنه جميعًا، فإن المنزل قد خضع تدريجيا لعمليّة تفسّخ بطريقة يتعذّر اجتنابها. كان دقيقًا، يضع الأشياء في أماكنها المناسبة والمخصصة لها، لكنه لم يعتن بأيّ منها، ولم يجلو أيّ قطعةٍ من قطع الأثاث أو يصقل أيًّا منها. أمّا أثاث الغرف التي كان نادرًا ما يدخلها، فقد كان مطمورًا بالغبار وشباك العناكب. يمتلئ البيت بعلامات الإهمال التام؛ تتلبّس فرنَ المطبخ قطعٌ من طعام محروق، ملتصقةً إلى حدٍّ يستحيل معه إنقاذ الفرن منها. وهناك في الخزانة ما بقي قابعًا على الرفوف لسنوات طويلة: علب طحين موبوءة بالحشرات، وبسكويت منتهي الصلاحية، وأكياس سكّر تحوّلت إلى كتل صلبة، وقنان من شراب القطر وقد

جفّت ولم يعد بالإمكان فتحها. ومتى ما قام بإعداد وجبة لنفسه، يقوم بغسل الصحون فور انتهائه منها، ولكنه يشطفها بالماء فقط، لم يستعمل الصابون قط. هكذا صارت الأكواب والصحائف والصحون مطليّة بغشاء دهنيّ داكن. وأكثر من ذلك، الظّلالُ تسكن أرجاء المنزل وتكسو كل شيء، فالنوافذ مغلقة على الدوام حتى اهترأت إلى درجة أن أخفّ حركةٍ لفتحها قد تقتلعها. والتسريبات تسللت من أنابيب المياه ولطّخت الأثاث، ولم يبعث السخّان دفئًا كافيا قط في زوايا المنزل وغرفه المختلفة. دش الاستحمام لا يعمل. صار المنزل رثّا، والتجوّل فيه يبعث على الأسى، تشعر وكأنّك تتجوّل في بيت رجلٍ مصابٍ بالعمى.

استمرّ أصدقاؤه وأفراد من عائلته، أولئك الذين استشعروا جنون نمطه في العيش داخل ذاك المنزل، في حثّه على بيعه والانتقال إلى سكن آخر. لكنه نجح على الدوام في صدّهم ومراوغتهم بالقول: ((أنا سعيد هنا!))، أو ((المنزل يلائمني تمامًا!)). لكنه في النهاية قرّر فعلًا الانتقال والعيش في مكانٍ آخر. فقد أخبرني في آخر اتصال هاتفيّ بيننا قبل عشرة أيام من وفاته بأن المنزل قد بيع وأن آخر موعد لإخلائه وتسليمه لمُلّاكه الجُدد هو الأوّل من فبراير، أي بعد ثلاثة أسابيع، وأراد أن يعرف ما إذا كنت أريد اقتناء أيّ من محتوياته، فوافقت على القدوم لزيارته مع زوجتي ودانيال في أوّل يوم مفتوح لعرض حاجيّات المنزل وأثاثه على الناس للبيع. لكنّه مات قبل أن نغتنم تلك الفرصة لرؤيته.

تعلّمت؛ لا شيء أكثر رهبة من مواجهة أغراض رجل مات. الأشياء تهمد أيضًا، فمعناها كامنٌ في دورها خلال حياة صاحبها وحسب.

وعندما تقف تلك الحياة، يجري في داخل الأغراض تحوّلٌ ما ، حتى بدت باقيةً كما كانت. إنها هناك، في مكانها، ولكنها في نفس الوقت ليست هناك: إنها أشباح ملموسة، ومحكومة بالبقاء على قيد الحياة في عالم لا تنتمي إليه. ما الذي يمكن لشخصٍ أن يتأمّله، على سبيل المثال، في ثياب تكفي لملئ خزانة، تنتظر بصمت أن يرتديها مرّة أخرى رجلٌ لن يعود لفتح الباب؟ ما الذي هناك لتأمّله في حزم هاربة من الواقيات الذكريّة، متناثرة داخل أدراج تحتشد بالملابس الداخليّة والجوارب؟ ما الذي هناك حقًّا للتفكّر به في شفْرة حلاقة كهربائيّة تجلس في الحمام، لا تزال مسدودة ببقايا شعر الذقن بعدَ آخر حلاقة؟ أو درزن من أنابيب أصباغ الشعر مخفيّة في حقيبة سفر جلديّة؟. تُفصح أغراض الميّت عمّا لا رغبة لأحد في سماعه، عمّا لا رغبة لأحد في معرفته. هناك إحساس بالمرارة نحوها، ونوع من الرّهبة. لا تعني الأغراض في ذاتها شيئا، فهي كأدوات طهوٍ لحضارة بادت. لكنها تقول لنا شيئًا؛ تقف هناك لا كأدوات، ولكن كبقايا لفكرة، كبقايا لإدراك، إنها رموز الخلوة التي يتّخذ فيها رجلٌ قرارات بخصوص نفسه: هل يلوّن شعره؟ هل يرتدي هذا القميص أم ذاك؟ هل يبقى، أم يرحل؟ ثم لا جدواها كلّها بمجرّد أن يأتي الموت.

أشعر بأنني دَخيلٌ وطُفيلي كلّما فتحت دُرجًا أو دسست رأسي في خزانة.. أشعر بأنني لصّ يفتّش أماكن سريّة في عقل رجل. يلازمني أثناء ذلك إحساس بأنّ أبي سيدخل عليّ بغتة، سيحدّق نحوي غير مصدّق، ثم يسألني ما الذي كنت أفعله بحق الجحيم؟. لم يكن عَدْلًا ألّا يكون بمقدوره الاعتراض على ما أفعله. لستُ أملك الحقّ في انتهاك خصوصيّته هكذا.

هُنا رقم هاتف خُطّ على عجالة خلف بطاقة عملٍ طُبع عليها: هـ.لايمبورغ: عُلَب قمامة من جميع الأصناف. وفوتوغرافات لشهر عسل والديّ في شلالات نياغرا عام ١٩٤٦: تجلس أمي بعصبيّة على رأس ثور من أجل التقاط إحدى تلك الصور المسليّة التي لم يكن الوقوف لالتقاطها مسليًّا قط، ينبعث منها إحساس عميق بأن العالم كان مُصطنعًا على الدوام، منذ ما قبل التاريخ، ولا يزال. هُنا دُرج مليء بمطارق ومسامير وأكثر من عشرين مفك براغي. وخزانة لحفظ الملفات محشوّة بشيكات ملغاة منذ عام ١٩٥٣، وبطاقات تلقّيتُها في عيد ميلادي السادس. وهُنا، مدفونةً في قاع أحد أدراج خزانة الحمام، فرشاة أسنان كانت تعود في يوم ما إلى أمي، مزخرفة بحروف اسمها، لم يمسسها أحد أو يلقي عليها نظرة لأكثر من خمس عشرة سنة.

القائمة لا تنضب.

بعد فترة وجيزة على رحيل أبي، اتضح لي أنه لم يقم بأيّ أمر يدُل على أنه يتهيّأ للرحيل من المنزل، أو أنه على وشك الانتقال إلى مسكنٍ آخر. الإشارات الوحيدة على مغادرته الوشيكة من البيت، والتي استطعت الكشف عنها، كانت صناديق قليلة من الكتب- كتب عاديّة (أطالس انتهى وقتها، ومقدمة للإلكترونيات تبلغ من العمر خمسين عامًا، وكتاب قواعد اللغة اللاتينية للمرحلة الثانوية، وكتب قانون غابرة). كان ينوي التبرّع بتلك الكتب لصالح مؤسّسة خيريّة. ما عدا ذلك، لا شيء؛ لا صناديق فارغة تنتظر أن تُملأ، ولم يتصدّق بأيٍّ من قطع الأثاث أو يدفعها لصفقة بيع. لا ترتيبات مسبقة مع شركة نقل. لقد بدا الأمر

وكأن أبي لم يكن قادرًا على مواجهة قرار ترك المنزل. هكذا، عوضًا عن إفراغ البيت، قام ببساطة بتهيئة نفسه للموت. موته كان طريقته في الخروج، كان الهروب الشرعيّ الوحيد.

وفي الجهة الأخرى، لم يكن لي أنا طريق إلى الهرب. عليّ أن أنهي الأمر، ولا أحد هناك لينجزه غيري. لقد تفقّدت حاجيّاته لعشرة أيّام متتابعة، ونظّفت المنزل، وأعددْته لملّاكه الجدد. كان وقتا تعيسًا، ولكنه في نفس الوقت وقتٌ غريب، هزليّ بجدارة، وقت لقرارات طائشة وغير معقولة: ((قم ببيعه))، ((تخلّص منه))، ((أبعده عنك)). اشترينا أنا وزوجتي زحلوقة خشبية كبيرة لدانيال ذو الثمانية عشر شهرًا، ووضعناها في غرفة المعيشة. كان فرحًا بالفوضى المُباحة: يذهب لتفقّد الأشياء المتناثرة، واضعًا غطاء الأباجورة على رأسه، قاذفًا رقاقات البوكر حول المنزل، راكضًا خلال المساحات الشاسعة للغرف التي لم تفرّغ بعد. نستلقي في الليل أنا وزوجتي تحت لحاف مشترك لنشاهد أفلامًا رديئة على التلفزيون، حتى بيع التلفزيون وأُخذ بعيدًا عنّا. كانت هناك مشكلة في السخّانة، وإذا نسيتَ القيام بتعبئتها بالماء، تنطفئ فجأة. استقيظنا في إحدى الصباحات ووجدنا أن الحرارة في المنزل قد هبطت أربعين درجة. يرنّ الهاتف عشرين مرّة في اليوم، ولعشرين مرّة يوميّا أقول لأحدٍ لا أعرفه بأن والدي مات. لقد صرتُ بائع أثاث، ورجل نَقلٍ وعتّال، ومراسلا للأنباء السيئة.

بدأ المنزل بنسج سلسلة كوميديّة، كان موضوعها هو أخلاق أقاربنا المصطنعة وتصرّفاتهم، إذ هجموا علينا، سائلين أخذ هذه القطعة من

الأثاث أو تلك التّشكيلة من الأواني، محاولين الحصول على بزّات أبي، مُقلّبين الصناديق، ويثرثرون مع بعضهم بعيدًا كالإوز. أَقبل المزايدون لتفقّد البضاعة: ((لم تُنجّدوا من الأثاث شيئًا، إنه لا يساوي قرشًا!))، ثم رفعوا أنوفهم وخرجوا. جاء جامعو القمامة بأحذيتهم الثقيلة ونقلوا إلى الخارج تلالًا منها. عامل مصلحة المياه قرأ عدّاد المياه، وعامل مصلحة الغاز قرأ عدّاد الغاز، وعمّال الوقود قرأوا عدّاد الوقود (أحدهم، نسيت أيّهم بالتحديد، أذاقه أبي وقتًا عصيبًا لسنوات خلّت، قال لي ببهجيّة وخبث: ((لا أحبّ أن أقول ذلك (مما يعني أنه قال ذلك من قبل) ولكن والدك كان بغيضًا ودنيئًا))). جاءت وكيلة العقار لتشتري بعض الأثاث للمالكين الجددْ، وانتهى بها الأمر إلى أن ابتاعت مرآةً لنفسها. والمرأة التي كانت تدير دكّانا للتّحف، اشترت قبّعات أمي القديمة. رجل الخردوات جاء ومعه فريق من المساعدين (أربعة رجال سود، أسماؤهم: لوثر، أوليسيس، تومي برايد، وجو ساب) وحملوا كلّ شيءٍ إلى عربتهم حتى فاضَت؛ من بعض الحدائد إلى آلة التحميص المعطّلة، وبحلول الوقت الذي انتهوا فيه من عملهم، لم يبق شيء في المنزل، ولا بطاقة بريديّة واحدة، ولا حتى فكرة.

لو أمكنني القول بأنني مررتُ بموقفٍ واحد كان الأشقّ عليّ من بين كل المواقف العصيبة خلال تلك الأيام، فلن يكون سوى تلك اللحظة التي عشتها عندما مشيت عبر الحديقة الأمامية للمنزل، تحت المطر الهاطل، وكفّاي مملوءتان بربطات عنق تخصّ أبي، وقد كنتُ أهمُّ بإلقاءها في شاحنةٍ لجمع التبرعات الخيريّة. إن لديه أكثر من مئة ربطة عنق، هذا مؤكد، فأنا أتذكّر ها جيّدًا منذ طفولتي؛ فأنماطها، وأشكالها التي رسخت في ذاكرتي المبكّرة، لا تزال صافيةً صفاء وجه أبي. كم كان

شنيعًا أن أرى نفسي مُلقيًا بها بعيدًا كأنها كومةٌ من النفايات. لكنني حينها، في الوهلة التي أعقبت إلقائي بها إلى الشاحنة، اقتربتُ من الدمع وبكيت أخيرًا. قيامي برمي ربطات العنق تلك كان أشدّ عليّ من رؤيته في النعش ويُنزل داخل الأرض؛ مثّل رَمْي الرّبطات عندي فكرة الدّفن. استوعبت أخيرًا أنه مات.

بالأمس، جاءت إلينا طفلة الجيران لتلعب مع دانيال؛ فتاة عمرها ثلاث سنوات ونصف تقريبًا، وقد أدركَت مؤخّرًا أن الذين يكبرونها سنًّا قد كانوا هم كذلك في يومٍ ما أطفالًا! وأن لدى أمها وأبيها أيضًا والدان!. انغمرت في اللعب حتى قامت فجأة بالتقاط سمّاعة الهاتف وشرعت في محادثة وهميّة، ثم التفتت إليّ أثناءها وقالت: «بول، إنه والدك، يريد التحدّث معك». كان الأمر مروّعًا. ظننت أن شبحًا في الجهة الأخرى من خط الهاتف يريد حقًّا التحدّث إلي. استغرقني الأمر بضع ثوانٍ حتى أجيب: «لا»، زال الغبش أخيرًا، «لا يمكن أن يكون ذاك أبي، لا يمكنه الاتصال بي اليوم، إنه في مكان آخر».

انتظرتُ الفتاة حتى أغلقت الهاتف وخرجت من الغرفة.

وجدتُ مئات الفوتوغرافات في خزانة غرفة نومه - ألبومات مخفيّة بعيدًا في مظاريف بنيّة مهترئة ومتناثرة بحريّة داخل الأدراج، والصور لا تزال مُلصقة إلى صفحاتها السوداء. استنتجتُ من هذه الطريقة العشوائية التي حُفظت بها الألبومات، أنّ أبي لم يتفقّدها قط، ونسي تمامًا

وجودها هناك. كان من بينها ألبوم كبير واحد، مُغلّف بجلد ثمين يحمل دمغة ذهبيّة طُبع عليها: «هذه حياتنا: الأوسترز». كان ألبوما فارغا. قام أحدهم في وقت ما، ربما أمّي، بعناء التوصية على صنعه بشكل خاص وتصميمه، ولكن لم يهتم أحد قط بملئه.

عدت إلى البيت، وتأمّلت تلك الصور بافتتان صاحبَه نوع من الهوس. فقد وجدتها لا تقاوم؛ إنها ثمينة كآثار مقدّسة، وبإمكانها أن تخبرني عن أمور لم أعرفها من قبل، وأن تبوح بالّذي كان من حقائق مخبّأة. تمعّنت بكثافة في كل واحدة منها حتى تشرّبت أدقّ التفاصيل ورأيت الظّلال التي لا يمكن تمييزها بسرعة. صارت الصور كلها جزءًا مني، ولم يكن في نيّتي أن أدع أيّ شيء يضيع منّي.

يأخذ الموتُ جسدَ الرّجل بعيدًا عنه. فالرّجل وجسده، أثناء حياته، شيئان مترادفان؛ لكن في الموت، هناك الرّجل وهناك جسده. نحن نقول: «هذا هو جسد فلان،» وكأن هذا الجسد الّذي كان مرّة الرّجل نفسه، لا غرضًا يمثّله أو يعود إليه، بل فلان نفسه، صار بغتة ليس بذي أهميّة. عندما يدخل عليك رجل الغرفة وتصافحه، لا تشعر بأنك تصافح يده، أو أنك تصافح جسده، ولكنك تصافحه هو. الموت يغيّر ذلك. هذا هو جسد فلان، لا هذا هو فلان. السياق يختلف تماما. نحن نتحدث الآن عن شيئين بدلا من شيء واحد، موحين بأن الرّجل مستمرّ في الوجود، لكن على شكل فكرةٍ وحسب، كمجموعة من صور وذكريات في أذهان الآخرين. أمّا الجسد فلا يعود شيئا سوى لحم وعظام، سوى كومة من مادّة خام.

إن العثور على هذه الفوتوغرافات هو أمر مهمّ بالنسبة لي، إذ تبدو

وكأنها تُعيد تأكيد حضور أبي المادي في العالم، وتهبني وهْم أنّه لا يزال يعيش فيه. إن حقيقة أنني لم أر الكثير من هذه الصور من قبل، وبشكل خاصّ تلك التي تعود إلى فترة شبابه، قد بعثت فيّ شعورًا غريبًا، لكأنني ألتقيه لأوّل مرّة، لكأنّ جانبًا منه قد بدأ للتوّ بالحياة. فقدتُ أبي، لكنني في نفس الوقت وجدتُه أيضًا. فإذا ما أبقيتُ على هذه الصور نُصْب عينيّ دومًا، وواصلتُ تأمّلها دون انقطاع بكامل انتباهي، فسيكون الأمر كما لو أنه لا يزال حيًا، حتى في موته. أو إذا لم يكن حيًا، فإنه على الأقل ليس ميّتًا. أو بالأحرى، إنه عالقٌ بطريقة ما، محبوسٌ في كَوْن لا صلة له بالموت، ولا يستطيع الموت أن يجد إليه منفذًا.

لم تُخبرني أغلب هذه الصور عن أيّ أمر جديد، لكنها وحسب ساعدت في ملء بعض الفراغات وتأكيد بعض الانطباعات، وتقديم أدلّة لم تظهر لي من قبل. هُنا سلسلة من الصور أُلتقطت له أثناء سنواته التي قضاها قبل الزواج. إنها تُعطي حسابًا دقيقًا لعدد من جوانب شخصيّته التي قام بدفنها أثناء زواجه؛ هناك جانب منه لم ألحظْه إلا بعد طلاقه من أمي: أبي المراوغ، المحب للتسلية والمبتهج؛ أجدهُ في سلسلةٍ من اللقطات واقفًا إلى جانب فتيات يتخذن أوضاعًا هزليّة؛ اثنتان في العادة أو ثلاثة، تلتفّ أيديهن أحيانًا حول بعضهن، أو تجلس اثنتان منهنّ في حضنه وتؤدّي الثالثة قُبلة مسرحيّة تنفُخها نحوه من أجل خاطر المصوّر. أمّا خلفيّات الصور، فتقف فيها أحيانًا تلّة، أو ينبسط ملعب تنس، وأحيانًا تظهر بركة سباحة أو كوخ خشبي. هذه هي الصور التي جمعها من تمضيته لعطلات نهاية الأسبوع في منتجعات

جبال كاتسكيل برفقة أصدقاء الكليّة: يلعب التنس، ويقضي وقتًا ممتعًا مع الفتيات. وقد استمرّ على هذه الحال حتى بلغ الرابع والثلاثين من العمر.

تلك حياةٌ ناسبته. أستطيع أن أرى الآن لماذا عاد إليها بعد انكسار زواجه. فبالنسبة إلى رجل لا يجد الحياة محتملة إلّا بأن يبقى على سَطْح نفسه، فإنه من الطبيعي ألّا يرضى بكشف شيءٍ للآخرين سوى مظهره الخارجي. عاد إلى حياةٍ ليس فيها سوى القليل من الحاجات لقضائها، أمّا الالتزام فهو غير وارد في أبجديّتها. الزواج، في الجهة الأخرى، يُغلق هذا الباب؛ ينحبس وجودك كلّه في مساحة ضيّقة، حيث يُفرض عليك بشكل دائم أن تبوح بما في داخلك. ولهذا، أنت مُطالب بالنظر إلى داخلك باستمرار، لتختبر أعماقك. لهذا ناسبته تلك الحياة التي لا وجود فيها أبدًا لأيّة مشكلة، فبابها مُشرع أبدًا: تستطيع الهرب إن شئت، تستطيع اجتناب المصارحات غير المرغوبة، سواءً مع نفسك أو مع الآخرين، وتقدر ببساطة أن تخرج وتبتعد.

لا حدّ على الإطلاق لقُدرة أبي على المراوغة. فالآخرون، بالنسبة له، مَيدانٌ مزيّف. لذلك فهو يتوغّل فيه بجزء غير حقيقيّ من ذاته، جزء مساو في زيفه لذاك الميدان؛ إنه يكشف عن ذاتٍ أخرى قام بتدريبها كمُمثّل ينوب عنه في الفراغ الكوميدي للعالم على اتساعه. كان هذا النائبُ الذاتيّ مُثيرًا ومُبهرًا، كان طفلًا مُفرط النشاط وتلفيقًا من حكايات طويلة، ولا يمكنه أن يأخذ أيّ أمرٍ مهما كان على محمل الجد.

ولأنّه يستخفّ بالأمور، فقد أباح لنفسه حريّة القيام بما ترغب به؛ التسلّل مثلًا إلى أندية التنس دون أن يُقدم على الاشتراك فيها،

أو التظاهر بأنه ناقد مطاعم حصيف كي يحصل على وجبات مجانيّة. والسّلاسة الساحرة التي أنجز بها انتصاراته تلك هي تحديدًا ما جعلت كل إنجازاته فارغة من المعنى. فمثلًا، إن أراد التودّد إلى امرأةٍ مغرورة، فسيقوم بإخفاء عمره الحقيقي، وسيختلق قصصًا عن صفقات تجاريّة كبيرة، وسيتحدث عن نفسه بشكل ملتو- بضمير الشّخص الثالث، كأنّه يتكلّم عن أحد معارفه: «لديّ صديق يعاني من هذه المشكلة، فما الذي تظنّين أن عليه فعله حيالها...؟». ومتى ما ضاق الوضع عليه، متى ما دُفع إلى حافّةٍ يُضطرّ عندها إلى الكشف عن نفسه أو عن أيّة معلومةٍ تخصّه، فسيتملّص من ذلك بالكذب. هكذا صار الكذب عنده سلوكًا تلقائيًا حتى بات جزءًا من أحاديثه ولا غرض لهذا الجزء سوى وجوده المحض؛ فمبدأه هو التقليل من الحديث عن نفسه قَدر الإمكان، بل واجتناب ذلك تمامًا. فالناس، إذا لم يعرفوا أبدًا أيّة حقيقة عنه، لن يجديهم استخدام ما يعرفونه إذا انقلبوا عليه لاحقًا. الكذب هو أسلوبه لتأمين الحماية. وبالتالي، فإن ما رآه النّاس عندما ظهر أمامهم، لم يكن هو، بل كان شخصًا آخر قام باختراعه، كان مخلوقًا مصطنعًا يقدر أن يتلاعب به كي يمكنه التلاعب على الآخرين من خلاله. أمّا هو، فقد بقي خافيًا، صانع عرائس يحرّك خيوط أناه الأخرى من الظلام، من مكان منْزوٍ خلف الستارة.

كانت لديه صديقة واحدة ثابتة خلال العشرة أو الاثنتي عشرة سنة الأخيرة من حياته، فهي من كانت تخرج برفقته إلى العلن، وهي من لعبت دوْر الرّفيقة الرّسمية. وقد دار في بعض الأوقات حديث مبهم حول الارتباط (عند إصرارها)، وافترض الجميع أنها الوحيدة التي تجمعها علاقة به. لكن نسأء أخريات بدأن بالظهور بعد وفاته!؛ هذه

أحبّته، وتلك عبدته، وأخرى كانت على وشك الزواج به. صعقت الصّدمةُ صديقته العلنيّة عندما عرفت بأمر الأخريات، إذ لم ينبس أبي أمامها قط بأيّة كلمة عنهن. لقد قام ببثّ كلّ واحدة منهن في قناة مختلفة، هكذا ظنّت كل واحدة منهن أنها حازت عليه بشكل كامل. لكن، كما اتضح لاحقا، لم يكنّ يعرفن أقلّ القليل عنه. قام بمراوغتهنّ جميعا.

عُزلةٌ لم يكن مغزاها أن يحيا وحيدًا؛ ليست عزلةً على طريقة ثورو، مثلًا، عندما ذهب إلى المنفى بنفسه محاولًا إدراك موقعه من العالم. ولم تكن عزلة على طريقة يونس، عندما صلّى للخلاص في بطن حوت. بل عزلة للتخلّي، بمعنى ألّا يضطر للنظر إلى نفسه، أو ليس عليه أن ينظر إلى نفسه مَنظورًا إليها بعيون الآخرين.

لم يكن التحدّث إليه سوى محاولة تجريبيّة للحديث معه. فهو إمّا أن يكون غائب الذّهن، كما هو على الدوام، أو أنه سيقاطعك بمزحة جافّة، ممّا كان شكلا آخر للغياب. الأمر أشبه بأن تقوم بما في وسعك لتكون مفهومًا لرجلٍ تقدّم به السّن وأُصيب بالخرف؛ تتحدّث، ولا استجابة هناك، أو ترى استجابةً غير ملائمة وتكشف لك أن الرجل لم يكن يتابع تدفّق حديثك. في السنوات الأخيرة من حياته، وجدت نفسي أتحدّث معه أكثر من المعتاد عندما أهاتفه، أصيرُ على الرّغم مني ثرثارًا؛ أدردش باستمرار في محاولة عقيمة لجذب انتباهه، لأثير فيه أيّ استجابةٍ مقبولة. ثم، في خضم ذلك، أنتبه إلى نفسي، وأشعر كم كنت غبيًّا لكوني أجهدت نفسي في المحاولة دون جدوى.

لم يدخّن ولم يشرب الكحول. لا جوع فيه للمتع الحسيّة، ولا عطش للمتع الفكريّة. تضجره الكتب، وكان نادرًا ذلك الفيلم أو تلك المسرحيّة التي لم تُسلمه إلى النوم. ستجده يكافح بيأس كي يُبقي عينيه مفتوحتين حتى في الاحتفالات، لكنه ينهزم في أكثر الأحيان؛ يغفو على كرسيّه والأحاديث تدور من حوله. تشعر وكأنّ لا شيء يملك القدرة أبدًا على اقتحامه واختراقه، كأنّ لا حاجة له لأيّ شيء ممّا يعرضه العالم.

تزوّج في الرّابعة والثلاثين، وفي الثانية والخمسين انفصل. يبدو أنّ الزّواج، للوهلة الأولى، قد استمرّ لسنوات، لكنه في الواقع لم يستمر لأكثر من عدّة أيام. لم يكن قط رجلا متزوّجًا، ولا رجلا مطلّقًا، بل كان طوال حياته ذاك الشاب العازب الذي صادف أن أخذ فترة استراحة فاصلة بالزواج. وعلى الرّغم من عدم تهرّبه من واجباته العمليّة كزوج (كان وفيًّا؛ وفّر ما يستطيعه لزوجته وأبنائه، وحمل على أكتافه كلّ مسؤولياته)، فقد بدا واضحًا تمامًا أنّه لم يُفَصّـل أبدًا للعب هذا الدور.. إنّه ببساطة لا يملك الموهبة اللازمة للقيام به.

كانت أمّي في الحادية والعشرين من عمرها وحسب عندما تزوّجته. وكان سلوكه في فترة التودّد مُحتشمًا؛ لم تكن هناك مُقدّماتٌ جريئة، ولا بداياتٌ تكتم الأنفاس لرجُلٍ مُسْتثار وشهواني. يُمسك كل واحدٍ منهما كفّ الآخر أحيانًا، ويتبادلانً بأدب قُبلة تمنّي ليلة سعيدة، وهذا كل ما في الأمر. بكلمات أخرى، لم يكن أيّ واحد منهما يصرّح بحبّه للآخر. وعندما حلّ وقت العرس، كانوا إلى حدّ بعيد غرباء عن بعضهما.

لم يمض الكثير من الوقت حتى أدركت أمّي خطأها، لن ينجح هذا الزواج. عرفَت ذلك مُبكّرًا، قبل نهاية شهر العسل حتى (تمّ توثيق شهر العسل كاملا في الفوتوغرافات التي وجدتها: يجلسان مع بعضهما على صخرة بمحاذاة بحيرة ساكنة تماما؛ مسارٌ واسع لضوء الشمس خلفهما يتّجه إلى منحدر من أشجار الصنوبر كثيفة الظّلال. كان أبي يلفّ ذراعيه حول أمي، وكانا ينظران إلى بعضهما، يبتسمان بحياء واضطراب، كأنّ المصوّر قد جعلهما يبقيان على تلك الخدعة للحظة طالت عليهما كثيرا). ذهبت أمي إلى أمها باكية وأخبرتها بأنها ستهجره. وبطريقة ما، استطاعت جدتي إقناعها بأن تعود إلى أبي وتجرّب الحياة معه مرّة أخرى. وعند ذلك، وقبل أن يهدأ الغبار، وجدَت نفسها حبلى. وبغتّة صار الوقت متأخّرا على فعل أيّ شيء.

يخطر لي أحيانا كيف أنّ أمي قد حبلت بي في منتجع شلالات نياغرا المخصّص لقضاء شهر العسل. ليس لأهميّة موقع الشلالات بالطبع، بل لرُعب فكرة أنني كنتُ نُطفةً تكوّنَت من خلال عناق خال من الشّغف، في أحضان عمياء، وعبر ملاطفات كان لا بدّ منها تحت شراشف الفندق الباردة. لقد فشلَت هذه الفكرة في إخضاعي لأصدّق أنني لا شيء سوى حدث طارئ، أن وجودي محض صدفة وخطأ. شلالات نياغرا، أو خطر ما قد ينتج عن التحام جسدين، وعندها أنا، مخلوق قزم وعشوائي، كأنني أحد الذين تهوّروا منذ زمن ورموا أنفسهم من فوق الشلالات داخل برميل.

لاحقًا، بعد مضي ثمانية أشهر أو أكثر قليلًا على شهر العسل، في صباح

يوم ميلادها الثاني والعشرين، أفاقت أمي من نومها وأخبرت أبي بأنها ستلد، فقال لها: «غير معقول، تحتاج ولادة هذا الطفل إلى ثلاثة أسابيع قادمة». ثم ذهب فورًا إلى العمل وتركها من دون سيّارة.

كانت تنتظر. ظنّت أن أبي قد يكون على حق. تماسكت أكثر، تجلّدت، ولكنها في النهاية اتصلت بزوجة أخيها وسألتها أن توصلها إلى المشفى. قامت خالتي بمرافقة أمي طوال اليوم، وتوالت اتصالاتها على أبي ساعة بعد ساعة طالبةً منه المجيء، ولكنه كان يجيبها: «لاحقًا، أنا مشغول الآن، سأكون عندكم عندما أستطيع».

انتظرَت قدومه، لكنّه لم يظهر إلّا صباح اليوم الثاني برفقة والدته. أرادت جدتي أن تتفحّص حفيدها السابع. كانت زيارة قصيرة ومتوترة، انطلق بعدها عائدًا إلى العمل.

بالطبع، أجهشت أمي بالبكاء. فقد كانت فتاةً صغيرةً قبل كل شيء، ولم تتوقع ألّا تعني هذه الولادة إلا القليل لزوجها. لكن لم يكن بمقدوره قط أن يفهم مثل هذه الأمور أو يشعر بها. لا في بداية علاقتهما ولا في نهايتها. لم يكن مُحتملًا بالنسبة له أن يقف هذا الموقف. فهو في مكان آخر طوال حياته، بين هنا وهناك. لكنه لم يكن هنا حقًّا، ولم يكن هناك أيضًا.

حدثت هذه الدراما الصغيرة مرة أخرى بعد ثلاثين عامًا. ولكنني في هذه المرّة كنتُ شاهدًا عليها، أسمع وأرى وأفهم، ورأيت كلّ شيء بعينيّ هاتين.

لقد ظننت عند ولادة إبني أنه سيُسعد به. لم يكُن هناك من داعٍ للشّك في هذا الأمر أصلًا. ألا يسعد كلّ رجل بأن يصبح جدًّا؟.

أردتُ أن أراه يحنو على الرّضيع، لأجله هو، كي يقدّم دليلًا على أنه قادر على التعبير عن شعور ما- أنّه كان، بعد كلّ شيء، يمتلك بعض المشاعر التي تجول في داخله كباقي البشر. وإذا استطاع أن يُظْهر انجذابًا وحُبًّا على نحو ما لحفيده، أليست تلك طريقة غير مباشرة لإظهار ودّه لي؟ فأنت لا تكفّ عن الجوع لحب أبيك، حتى بعد أن تكبر.

لكن لا يتغيّر النّاس حينها بالضرورة. ففي المحصلة، رأى أبي حفيده لثلاث أو أربع مرّات وحسب خلال حياته كلها، ولم يكن قادرًا في أيّ وقتٍ منها على تمييزه من بين حشد الأطفال المجهولين الذين يولدون كل يوم في العالم. كان عمر دانيال أسبوعين عندما ألقى بنظرة عليه لأوّل مرة. أستطيع تذكّر ذاك اليوم بوضوح: كان يوم أحَد شديد القيظ، في نهاية شهر يونيو، طقسه مائجٌ بالحرارة وهواء البلدة رماديّ من الرطوبة. كان أبي يتنزّه بسيّارته عندما توقّف لرؤيته زوجتي عند الباب تضع الصغير في عربته، فترجّل لإلقاء التحيّة علينا. دسّ رأسه في العربة لعُشْر دقيقة، ثم انتصب وقال: «طفل جميل، بالتوفيق»، وأكمل طريقه داخلًا البيت. يمكنه أيضا أن يتحدّث بنفس الطريقة عن طفل غريب صادفه في طابور السوبرماركت. ولبقيّة زيارته ذاك اليوم، لم يلق نظرة أخرى على دانيال، ولم يطلب مرّة واحدة، إطلاقًا، أن يحمله.

كانت تلك مجرّد أمثلة.

أدركتُ استحالة الدخول إلى عُزلة الآخر. وإن كان صحيحًا أن بإمكاننا دومًا التعرّف على أيّ إنسان ولو إلى درجة بسيطة، فستكون

تلك المعرفة محدودة، ستكون معرفةً لا تتجاوز الحدّ الذي يسمح به الشخص المعنيّ بها. قد يقول رجلٌ ما: أشعر بالبرد. وقد لا يقول رجلٌ آخر أيّ شيء، ولكننا نراه يرتجف، وسنعرف حينها أنّه يشعر بالبرد. ولكن ماذا عن الرّجل الذي لا يقول شيئًا ولا يرتجف؟ ماذا عنه إذ تبدو كل معرفةٍ به مستعصية، وكل ما يتعلّق به مغلق وغامض؟. وقتها، لا يسع المرء فعل شيء سوى المراقبة. وعلى الرغم من ذلك، فإنني أعتقد بأنّ إدراك المرء لكُنْه ما يراه هي مَهمّةٌ أخرى تمامًا.

لا أريد أن أفترض شيئًا حوله.

لم يتكلّم قط عن نفسه، ولم تتراءى لنا قط درايته بأنّ هناك أمورًا يستطيع الحديث عنها. كان يبدو وكأنّ حياته الداخلية قد استعصت حتى عليه.

لم يستطع الحديث عنها، لذا تخطّاها بصمت.

وبما أنني لم أجد شيئًا عند وفاته إلا الصّمت، أفليست وقاحة منّي أن أبوح وأكسر السكون؟. ولو كنتُ قد وجدتُ شيئًا آخر غير الصمت، أعلى منه ربما، هل كنت أحسست بالحاجة إلى البوح في المقام الأوّل كما أشعر الآن؟.

خياراتي محدودة. أستطيع البقاء ساكتا، أو أستطيع الحديث عن أشياء لا يمكن الوثوق بها. وعلى أقل تقدير، أريد أن أضع الوقائع، أعرضها بأكبر صراحة ممكنة، وأجعلها تقول ما لديها. ولكن حتى الوقائع قد لا تقول الحقيقة دائمًا.

كان صلبًا ومحايدًا على السّطح، ويمكن التنبّؤ بسلوكه بشكل قاطع، إلى درجة أن كل ما قام به، رغم معرفتنا به مسبقًا، سبّب لنا صدمةً لمطابقته التامّة لتوقعاتنا. لا يستطيع المرء تصديق أنّ في الدنيا رجلا مثله- مفتقرًا للمشاعر، يريد أقلّ القليل من الآخرين. وإن كان لا وجود حقًّا لرجل كهذا، فهذا يعني وجود رجل آخر، رجل مختبئ داخل رجل مات ولم يعد في الدنيا، والحيلة هنا إذًا هي أن نعثر عليه، بشرط أن يكون موجودًا حقًّا كي نقع عليه.

أقول ذلك كي أعترف، منذ البداية، بأنّ مشروع كتابي هذا سائر إلى الفشل.

ذِكرى من أيّامي المبكّرة: غيابه. اعتادَ في السنوات المبكّرة من عمري على الذهاب إلى العمل في الصّباح الباكر، قبل استيقاظي، ولا يعود إلى المنزل إلا بعد وقت طويل من دسّي في السّرير للنوم. كنت ابنَ أمي، وعشت في مدَارها. كنت قمرًا صغيرًا يدور حول أرضها الضخمة، ذرّة في مجالها المغناطيسي، وتحكّمْتُ بمدّ مزاجها وجزره، بطقس أيامها وقِوى مشاعرها. وقد حذّرها والدي منّي مرارًا: «لا تهتمي به كثيرًا، سوف تفسدينه». لكن صحّتي لم تكن على ما يرام، واستخدمت أمي هذه العلّة لتبرير اهتمامها المسرف بي. أمضينا وقتا طويلا مع بعضنا، هي في وحدتها وأنا في تشنّجاتي، أنتظر بصبر في مكاتب الأطباء كي يُسكّن أحدهم الاضطراب الذي يثور باستمرار في معدتي. حينها، كنت ألتصق بأيّ واحد منهم في يأس، أردتهم أن يحضنونني. يبدو لي أنني، مبكّرا ومنذ البداية، كنت أحاول أن أجد أبي، إلى درجة أنني بحثت

بشكل محموم عن أيّ أحد يمثّله.

ذكرى متأخّرة: التّوق. عقلي على استعدادٍ دائم لرفض الوقائع بسبب أتفه الأعذار وأقلّها شأنًا. فلقد مضيت بعناد آأمل شيئًا لم يُعطَ لي قط- أو أُعطيْته لكن بتقطّع ونُدرة وتجريد، كأنّه حدث خارج نطاق التجربة الطبيعية، في مكان لا يمكنني أبدًا الحياة فيه لأكثر من لحظات قليلة كلّ مرّة. لم يكن ما أشعر به هو أنه كان يكرهني. بل بدا أنه مشوّش فقط، وليس بمقدوره النظر في اتجاهي. فأكثر ما أردته منه هو أن يلاحظني.

حتى أقلّ القليل كان كافيا لي. على سبيل المثال، ذهبنا جميعًا إلى إحدى المطاعم المزدحمة في يوم أحَد، وكان علينا أن ننتظر حتى تتوفّر لنا إحدى طاولات الطعام. وفجأةً أخذني إلى الخارج، ودفع نحوي بكرة مضرب (من أين جاء بها؟)، ووضع قرشًا معدنيّا على حافة الرّصيف، وشرع في بدء لعبة معي: عليك أن تصيب القرش بكرة التنس. لم أبلغ وقتها أكثر من ثمانية أعوام أو تسعة.

مستعيدًا تلك الذكرى الآن، لا أستطيع أن أجد فيها غير التفاهة. لكن حقيقة أنني كنت مَشمولًا برعايته، أنّ أبي قد طلب منّي عرَضًا أن أشاركه ضجره، قد سحقني من الفرح.

عشت الكثير من خيبات الأمل في فترات مختلفة من حياتي. كلّما بدا للحظة أنه قد تغيّر وانفتح قليلًا، يضمحلّ فجأة. لم أنجح في إقناعه بأخذي إلى مباراة كرة قدم سوى مرّة واحدة يتيمة (العمالقة يبارون كرادلة شيكاغو، في ملعب اليانكي، أو في البولو غراوندز، لا أتذكر أيّهما). وفي منتصف الرُّبع الرابع من المباراة، وقف فجأةً من مقعده

وقال: «حان وقت المغادرة». أراد أن يغلب الحشود، أن يسبقها كي يتجنب العلوق في زحامها. ما كان بمقدور أيّ شيء ممّا قلته على إقناعه بالبقاء حتى نهاية المباراة. ولذا غادرنا، هكذا، والمباراة مستمرّة وفي أوجها. كان يأسي خارقًا وأنا أتبعه هابطين السلالم الحجريّة. وحدث بعدها ما هو أسوأ من ذلك، لقد دوَت المدرّجات غير المرئيّة هادرة خلفنا ونحن نقطع ساحة مواقف السيارات.

لا يمكنك الوثوق به لمعرفة ما تريد، أو ليساعدك في استجلاء اضطراب كنت تخوضه. إن عليك أن تأتي إليه وأن تُخبره بما يعتمل فيك، دون أملٍ بأن يكتشفه هو بنفسه بشكل عفويّ. وهذا ما يُفسد مقدّمًا سرورك باستجابته، ويُعيق انسجامًا لطالما حلمت به قبل البدء بالبوح. وحتى لو حاولت وأخبرته عن أمرٍ ما، فلن يكون من المؤكّد على الإطلاق أنه سيفهم ما كنت تقوله له.

أتذكّر يومًا شبيهًا بيومنا هذا؛ يوم أَحَد خفيف الأمطار. كان المنزل يعمّ بالنعاس والهدوء، والعالم يسير بنصف سرعته. وكان أبي يأخذ قيلولة، أو أنه استيقظ منها للتو. وجدتُ نفسي مُندسًّا معه في الفراش، وكنا وحدنا في الغرفة. أظنّ أنّ الأمر قد بدأ هكذا: «أبي، إحكي لي قصة». ولأنه لم يكن يفعل شيئا، لأنه لم يزل نعسان، وفي خمول ما بعد الظّهيرة، قام بما طلبته منه بالضبط؛ شرع بثبات وثقة في حكاية قصّة أتذكّرها كلها بوضوح حتى الآن، لكأنني خرجت للتوّ من الغرفة، من نورها الرمادي وأغطيتها المتشابكة على الفراش. وكأنني ببساطة، عبر إغلاق عينيّ، أستطيع المضيّ عائدًا إليها في أيّ وقت أشاء.

حكى لي عن أيّام تنقيبه عن المعادن، تلك التي قضاها في أمريكا الجنوبية. كم كانت حكاية طويلة تتدافع فيها المغامرات، كم كانت مشحونة بأخطار قاتلة، ومهارب وفرارات يقف لها الشّعر. أمّا الحظّ والمفاجآت، فقد كانت تتقلّب بطريقة لا يمكن توقعها؛ شاقًّا طريقه عبر الغابة بمنجل، مقاتلًا قطّاع الطرق بيدين عاريتين، ومطلقًا النار على حماره عندما انكسرت ساقه. كم كانت لغته مُزهرة ومُلتفّة. ربما كانت صدى للكتب التي قرأها في صباه، فأسلوبه الروائيّ تحديدًا هو ما سحرني، لا ما كشفه لي من أمور لم أعرفها عنه، مُزيحًا السّتار عن عوالم ماضيه البعيد، بل الكلمات الجديدة الغريبة التي روى بها الحكاية. هذه اللغة مهمّة، أهميّة القصة نفسها؛ انتمت لها ولا يمكن التفريق بينهما. غرابتها هي دليل أصالتها.

لم يرد إلى ذهني الظنّ بأنّ حكايته كانت مخْتلقة. أمضيت أعوامًا بعدها مؤمنًا بصحّتها كلمة كلمة. وحتى بعد أن تخطّيت مرحلة الطفولة إلى النضج، لم أزل أشعر بأن فيها ماهو حقيقي. لقد أعطتني شيئًا أتشبّث به عن والدي، لهذا كنتُ متردّدا في أمر إطلاق سراحها، حتى انتهيت إلى تفسيرٍ لتشبّثي الغامض بها؛ إنني أتشبث بها لأن أبي لم يكن يكترث بي. لقد كان هو نفسه شخصيّةً خياليّة؛ رجل ذو ماض مظلم ومثير، ولم تكن حياته الحاضرة سوى محطّة وقوف فقط؛ وقوف مؤقّت لانتظار الوقت المناسب للإقلاع نحو المغامرة القادمة. كان يعدّ خططه، ويحاول إيجاد طريقة لاستعادة الذهب المدفون عميقًا في قلب جبال الأنديز.

في أعماقي شغفٌ لتحقيق ما هو استثنائي، أن أقوم بأمر بطوليّ كي

أثير إعجابه. وكلّما تجاهلني، تعلو رهاناتي. وعلى الرغم من أن الصبيّ كان مثابرًا وذا رغبة مخلصة، فإن الإمكانيّة العمليّة لما يريد تحقيقه كانت ضعيفة. كنتُ في العاشرة من عمري وحسب، وما من طفلٍ حولي لأنقذه من مبنى يحترق، ولا بحّارة لأنجدهم من الغرق في العاصفة. في الجانب الآخر، كنت لاعب بيسبول جيّد؛ كنت نجم فريق مكوّن من عصابة أصحابي الصغيرة، وظننت أنه لو شاهدني ألعب، لمرّة واحدة وحسب، سيبدأ بالنظر إلي تحت ضوء جديد.

و أخيرًا رآني. جاء والدا أمي لزيارتها في إحدى الأيام التي كانت تقام فيها مباراة بيسبول خاصّة احتفاءً بذكرى تاريخيّة ما. وقد قرر جدي، وهو مشجع عريق لكرة البيسبول، أن يجيء لمشاهدتي في الملعب، فرافقه أبي. كانت المقاعد ممتلئة. وإذا كنت سأقوم أبدًا بتحقيق إنجازٍ جدير بالملاحظة، فهذه هي اللحظة المناسبة له، هذه هي فرصتي. أستطيع تذكّر إلقائي لنظرة عليهما في المدرّجات الخشبيّة؛ يرتدي أبي قميصًا أبيض دون ربطة عنق، أمّا جدّي فكان يبسط منديلا أبيض على رأسه الأجرد كي يحميه من الشمس- المشهد كله في رأسي الآن منقوعٌ في ضوء أبيض متلألئ.

يمكن للكلمات هنا أن تمضي قُدمًا دون الحاجة إلى القول بأنني قد ضيّعتُ الفرصة. لم أحصل على ضربات جيّدة في الملعب، وفقدت توازني، وما عاد بإمكاني حينها أن أكون عصبيًّا أكثر ممّا كنت. فمن بين مئات المباريات التي لعبتها خلال طفولتي، كانت هذه المباراة هي الأسوأ على الإطلاق.

لاحقًا، وأنا أمشي نحو السيّارة برفقة أبي، قال لي بأنني لعبت مباراة

جيّدة. قلت له: «لا، لم أكن جيّدًا، كانت المباراة فظيعة»، فقال: «حسنًا، لقد فعلت ما في وسعك، ولا يمكنك أن تُحسن الصّنيع في كلّ مباراة».

لم يكن يحاول تشجيعي، ولا أن يكون على نحو ما لطيفًا معي. بل كان على الأحرى يحاول أن يقول ما يقوله أيّ أحدٍ في حوادث مشابهة، بشكل تلقائي وبعفويّة. كانت هي الكلمات الصحيحة لقولها لا أكثر. ولهذا خلَت من المشاعر، فقد كانت مثل تمْرينٍ على اللباقة؛ منطوقةً بنفس النغمة التي استخدمها بعد عشرين عامًا عندما قال «طفل جميل، بالتوفيق»، لقد أمكنني أن أراه سارحًا عنّي في مكان بعيد.

لم يكن ما حدث، في حدّ ذاته، مهمًّا. المهم هو أنني أدركت حينها أنني حتى وإن حققت ما كنت آأمل، فإن نظرة أبي نحوي لن تتغيّر. سواءً نجحت أو فشلت، لن يحمل الأمر أيّ معنى خاص بالنسبة له. لم أكن مميّزًا عنده بأيّ أمر أحقّقه، بل يميّزني بمن أكون وحسب: هو أبي وأنا ابنه، وهذا يعني أن تصوّره عني لن يتغيّر، وأننا وقفنا في علاقة لا تتحرّك، مقطوعين عن بعضنا في جهتين مفصولتين بجدار. وأكثر من ذلك، أدركت أنّ لا علاقة لي بكلّ ما قام به لأجلي، أنّ كلّ ما فعله لا يعني أحدًا سواه. كأيّ شيء آخر في حياته، رآني من خلال ضباب عزلته، على بعد فصول عديدة منه. مكان بعيد هو العالم بالنسبة له، مكان لم يكن بمقدوره أن يدخله حقا. وهناك، بعيدًا في المسافة، من بين كلّ الظّلال التي حلّقت مجتازة إيّاه، وُلدت أنا، صرت ابنه، وكبُرت، كأنني ظلّ آخر؛ أظهرُ في بُقعةٍ نصف مضاءة من إدراكه، وأختفي.

أمّا ابنته، فقد كان أمرها أسهل عليه من أمري، ولو في البداية على الأقل. لقد وُلدت أختي عندما كنت في الثالثة والنصف من عمري. وقد استصعب عليه وضعها لاحقًا بشكل لا حدّ له.

كانت طفلة جميلة، ورقيقة على نحو استثنائي، ذات عينين بنيّتين واسعتين تهميان بالدمع لأقلّ إشارة. قضت أغلب وقتها وحيدة. كانت شخصًا ضئيلًا يحوم في أرض خياليّة للأقزام والجنيّات، ترقص على رؤوس أصابعها مرتدية فساتين الباليه المُحاكة بالدانتيل. تُغنّي بصوت رفيعٍ بما يكفي لتسمعه هي فقط. كانت أوفيليا صغيرة، وبدا أنها قد حُكِمَ عليها بحياةٍ من الصراع الداخلي الدائم منذ طفولتها. لقد كوّنت القليل من الصداقات، وواجهت مشاكل في التزامها الدراسي، وكانت منهكة من شكّها في نفسها، إذ حتى عندما كانت في عمرٍ مبكّرٍ جدًا على مثل هذه المشاعر، فقد قامت بتحويل أبسط التصرفات نحوها إلى كوابيس من العذاب والهزيمة. عانت من نوبات من الغضب والبكاء الفظيع. مرّت باضطرابات لا حصر لها. وبدا أنّ الحلول التي جرّبناها لا تدوم نافعةً لها لوقت طويل.

كانت أكثر حساسيّة منّي وتأثّرًا لمفارقات زواج والدينا غير السّعيد وتداعياته من حولنا. لقد راح إحساسها بعدم الأمان يتضخّم، ويشلّها. فدائمًا ما كانت تسأل أمّي، لمرّة واحدة في اليوم على الأقل، ما إذا كانت قد أحبّت أبي أم لا؟. والجواب لم يتغيّر قط: «بالطّبع!».

لم يكن بمقدور هذا الجواب الكاذب أن يكون أكثر إقناعًا بزيفه ممّا كان عليه. وإلّا، فما الحاجة إلى إعادة السؤال نفسه في اليوم التالي؟.

ومن جهة أخرى، يصعب رؤية كيف أن قول الحقيقة سوف يحسّن الوضع.

كانت كما لو أنها قد خُلقت والعجزُ يضوع منها. لهذا فإن ردّ الفعل العفوي لأيّ أحدٍ يتعرّف عليها هو أن يحميها، وأن يخفّف صدمتها من اعتداءات العالم عليها. ومثل الجميع، قام أبي بتدليلها؛ فكلّما أبدت رغبة في الدلال، يبيت أكثر استعدادًا ليهبها إيّاه. استمرّ، مثلًا، على حملها للنزول من السلالم لفترة طويلة من حياتها، حتى بعد أن استطاعت المشي بمفردها. ولا شكّ في أنه قد فعل ذلك عن حب، فعله بسعادة لأنها طفلته، الملاك الصغيرة. لكن تحت هذا التدليل رسالة ضمنيّة تقول بأنها لن تستطيع أبدًا أن تقوم بأيّ أمر بنفسها. لم تكن شخصًا بالنسبة له، بل ملاكًا. ولم تكن مُجبرة على التصرّف ككينونة مستقلّة، لهذا لم تستطع أن تبني نفسها أبدًا.

لكن أمي قد لاحظت ما كان يجري، فأخذت أختي وهي في الخامسة من عمرها إلى طبيب نفسي للأطفال كي يكشف عليها ويشور في أمرها. وفعلًا، اقترح الطبيب البدء بنوع من العلاج. لكن تلك الليلة، عندما قامت أمي بإخبار أبي عن نتائج اللقاء بالطبيب، انفجر غاضبًا في وجهها: «ليس عندي بنتٌ تشكو من... الخ». لا يوجد هناك فرقٌ بالنسبة له إن كانت ابنته قد احتاجت إلى مساعدة طبيب نفسي أو أنها قد أصيبت بمرض الجذام. لم يقبل ذلك ولم يناقشه.

هذه هي النقطة التي أحاول إثباتها؛ رفضه لأن يرى نفسه، يقابله

رفض مساوٍ في العناد لأن يرى العالم، لأن يرضخ لأكثر الأدلّة بَداهةً محشورًا في أنفه. مواقفٌ مشابهةٌ لهذا العجز قد توالت في حياته، فهو يحدّق نحو العلّة، في وجهها، ثم يومئ برأسه ويلتفت قائلًا أن لا شيء هناك، ممّا يجعل الحوار معه أمرًا مستحيلًا. ففي الوقت الذي تظن أنك قد سوّيت أرضًا مشتركة بينك وبينه، يتناول معولًا ويبدأ بنقضها تحت قدميك.

مرّت السنوات، وعانت أختي خلالها من سلسلة من انهيارات ذهنيّة منهكة، لكن أبي استمرّ مؤمنًا بأنها ليست مصابة بأيّ سوء، وكأنه لا يستطيع بايولوجيًّا أن يدرك حالتها.

يصف رونالد لينق في أحد كتبه والدَ فتاة مشلولة بأنّه كان ينتزعها من كتفيها ، في كلّ مرّة يزورها في المشفى، ويهزّها بكلّ ما يملكه من قوّة صائحًا فيها «تحرّري خارجة ممّا أنت فيه». لم يقم أبي بانتزاع أختي، لكنّ سلوكه يستوحي ذلك ويشبهه. كان يقول بأنّ كلّ ما تحتاجه هو الحصول على وظيفة لتنتظم حياتها، وتهيّء نفسها للبدء بالعيش في العالم الحقيقي. وقد قامت بذلك بالطبع، لكنه تمامًا ما فشلت في تحقيقه. قال بعدها إنّها حسّاسة وحسب، وعليها أن تتغلّب على خجلها. وبإرجاع المشكلة إلى امتلاكها لشخصيّة غريبة ومميّزة، مضى في الاعتقاد بأنّها على ما يرام. لم يكن ذاك نوعًا من العمى، بقدر ما كان فشلًا في المخيّلة. وراح يجادل أيضًا: «متى يتوقّف البيت عن كونه بيتًا؟ أعندما تُقتلع أسقفه، أم عندما تُزال نوافذه، أم عندما تُهدّ جدرانه.. متى يصير البيت كومةً من الأنقاض؟. إنّ ابنتي مختلفة وحسب، إنها بخير». بعدها، وفي يوم ما،

تنهار عليك جدران البيت. ومع ذلك، لو لم يبقى في البيت شيء واقف سوى الباب وحده، فإنّ كل ما عليك فعله هو أن تعبر من خلاله، وها أنت في الداخل مجدّدا؛ كم كان ساحرًا النوم في الخارج تحت النجوم!، ولا تكترث للمطر، لا يمكنه أن يهطل لفترة طويلة!.

شيئا فشيئا، وبينما راحت تسوء حالتها، بدأ بتقبّل مرضها. لكنّه، كما في كلّ مراحل المرض، لم يتشرّب الأمر فورًا، بل تمرّ قناعته بأشكال غريبة الأطوار، أشكالٍ تلغي الذات تقريبًا. لقد صار مقتنعًا، على سبيل المثال، بأن الشيء الوحيد الذي يمكنه مساعدتها كان برنامجًا قاسيًا من المعالجة بالفيتامينات المركّزة. هذا هو العلاج الكيميائي المقترح للأمراض الذهنيّة وقتها، ولم يثبت أنّه ناجع بعد، ولكن له أتباعًا كثر. وتمكن رؤية سبب انجذاب أبي إلى هذا العلاج؛ فبدل أن يضطرّ إلى مصارعة حقائق عاطفيّة مدمّرة، أي أسباب المرض النفسيّة، يستطيع ببساطة أن يعتبر المرض خللًا جسديًّا، أي علّةً يستطيع معالجتها كما تعالج الإنفلونزا. صار المرض عَرَضًا خارجيّا، نوعًا من الحشرات يمكن القضاء عليه بقوّة خارجية مساويّة له ومعاكسة في الاتجاه. ظلّت أختي في عينيه، وبشكل مريب، غير ممسوسة بأيّ أذى على الرغم من كل ما تعانيه. فلقد ظنّ، في النهاية، أنّها ميدانٌ تدور فيه معركة ما، أي أنّ كل ما جرى عليها لم يكن ليؤثّر في صميمها على الإطلاق.

قضى عدّة أشهر في محاولة إقناعها بالبدء في علاج الفيتامينات المركّزة، وحتى أنّه ذهب إلى حدّ تناول الحبوب بنفسه ليثبت لها أنها لن تصاب بتسمّم. وعندما سلّمت بالأمر في النهاية، لم تستمر في تناول

الحبوب لأكثر من أسبوع أو أسبوعين. فعلى الرغم من أنّ الفيتامينات كانت باهظة الثمن (ولم يكن عاجزًا عن شرائها)، فإنه رفض أن يبتاع لها أيّ نوع آخر من العلاج. لم يكن مقتنعًا بإمكانيّة أن يقوم أحدٌ غريب بالاهتمام بابنته، فهو يعتبر الأطباء النفسيين مشعوذين، ومشغولين بنَقْع مرضاهم في الأدوية فقط لقيادة السيارات الفارهة!. رفض دفع الفواتير، ممّا حصر علاجها في أدنى نوع من الرعاية العامّة. كانت تعتاز المال، ومن دون دَخل يخصّها، ولكنه لم يودع في حسابها شيئًا يُذكر.

وفي المقابل، كان أكثر استعدادًا لأخذ زمام الأمور كلها بيديه، رغم أن ذلك لن يفيد أيًّا منهما. لقد أرادها أن تعيش في بيته لتكون رعايتها وملاحظتها مهمّته هو وحده، إذ لديه حواسّه التي يثق بها ليحيط علمًا بمرض ابنته. بهذه الصورة فقط يدرك أنّه مسؤول عنها. لكن استضافته لها في البيت (لعدّة أشهر، بعد انتهائها من إحدى فترات العلاج التي قضتها في المشفى) لم تُخِلّ بروتينه اليومي، فقد استمرّ في قضاء أغلب وقته في الخارج، وتركها وحدها تهيم في البيت الهائل كشبح.

كان مُهملًا ومتعنّتًا. ولكنه، تحت هذا الغطاء، كان يشعر بالألم. استطعتُ غَيْر مرّة، عندما كنّا نناقش وضع أختي هاتفيًّا، من سماع النّبرة الخافتة لانكسار صوته، كأنّه يحاول أن يكتم نَحيبًا. وبخلاف أيّة معضلة واجهها من قبل، مرضُ أختي قد اخترقهُ أخيرًا، وتركه مع إحساسٍ بالعجز الكامل. لا حُزن يصيب الوالدين أعظم من الحزن النّابع من العجز؛ إذ عليهم أن يتقبّلوه، حتى ولو فاق ذلك قدرتهم. وكلّما ازداد تقبّلهم له، كلما ازدادوا تعاسة.

بات يأسه هائلًا.

أتجوّل في البيت اليوم دون غاية، مكتئبًا وشاعرًا بأنني قد بدأت أفقد اتصالي بما أكتب. مررت صدفة على هذه الكلمات في رسالة كتبها فان غوخ: ((إنني أحتاج الأقارب والأصدقاء كأيّ أحد آخر، أحتاج الحبّ والوصال الحميم.. لست صخْرةً، ولست من حديد كصنبور أو عمود إنارة)).

ربما هذا هو ما يهمّ حقًّا؛ أن تطال الشعور الإنساني العميق وتلمسه، بغض النظر عن البراهين الخارجيّة والنظريّة لوجوده.

متناهية التفاصيل تلك الصّور؛ حَرونةٌ وعالقة في طين الذّاكرة. ليست مدفونة تمامًا ولا يمكن استعادتها بالكامل. ومع ذلك، فإنّ كلّ صورة، في حدّ ذاتها، قيامةٌ خاطفة. إنها تُشيرُ إلى لحظةٍ إن فاتك أن تَشهدها فقد ضاعت منك إلى لأبد. كانت طريقته في المشي، مثلًا، متوازنة بشكل عجيب. إذ أنّه يرتدّ على كعوب قدميه كأنّه سيرتمي بعماءٍ إلى الأمام نحو المجهول. أو طريقته التي يتقوّس بها على الطاولة وهو يأكل؛ مشدود الأكتاف، ويقضي على الطعام كاملًا، دون استطعامه على الإطلاق. وأخرى، تنبعث من السيّارات التي يستخدمها للعمل روائح غازات وزيوت متسرّبة ودخان العوادم، وتُصدر ضجّة في السّير، وتُخشخش في داخلها أدواتٌ حديديّة باردة. تذكّرتُ اليوم أنني كنت مرّة أرافقه وسط بلدة نيوارك، ولم يكن عمري وقتها أكثر من ست سنوات. حدث وأن داس بعنفٍ على المكابح فجأة، فقامت الهزّة الشديدة برمي رأسي

على لوحة قيادة السيارة. فاجتمع من حولنا حشدٌ من السّود ليروا ما إذا كُنّا بخير، وقامت امرأة بدفع كوز آيسكريم فانيلا إليّ عبر نافذتي المفتوحة. وأذكر أنني أجبتها بأدبٍ جَم: «لا، شكرًا»، وقد كنت منذهلًا من قدرتي على الحديث وقتها. وبعدها بعدّة أعوام، في سيّارة أخرى، أذكر أنّ أبي كان يحاول أن يبصق خارج النافذة، ليكتشف متأخّرًا أنّه لم يقم بإنزال زجاجتها، فاعترتني بهجةٌ لا منطقيّة وعارمة عندما رأيت لعابه يسيل على الزجاج. كان يأخذني معه أحيانًا في صغري إلى مطاعم يهودية في أحياء لم أعرفها من قبل؛ أماكن مظلمة ومزدحمة بكبار السن، وكل طاولة فيها مزيّنة بقنّينة سيلتزر زرقاء اللون. يصيبني الغثيان هناك، وأترك طعامي دون مسّ، مكتفيًا بمشاهدته يلتهم حساء الشمندر ومعجنات البايروجين، ولحومًا مسلوقة ومغطّاة بالفجل. لقد تربّيت كطفل أمريكيّ يعرف عن أسلافه أقل ممّا يعرف عن قبعة رجل الكوبوي هوبالونغ كاسيدي. وأذكر أنني عندما كنت في الثانية عشرة من عمري أو الثالث عشرة، أردت مرّةً بشكل يائس الذهاب مع بعض أصدقائي إلى مكان ما. فهاتفته مكتب عمله لأحصل على إذنه. لكنه أجابني بحيرة، ولم يعرف كيف يصوغ جوابه لي، إذ فاجأني بقوله: «أنتم مجموعة من الأغرار!». ولعدّة سنواتٍ بعدها، كرّرت مع أصدقائي جوابه ذاك كقطعة فولكلور، كنكتة تحنّ إلى أيّامها التي خلت (مات أحد أصدقائي بجرعة زائدة من الهيروين).

حجم كفّيه وصلابتهما.

يأكل الطبقة المتخثرة فوق الشوكولاتة الساخنة.

شاي بالليمون.

كانت نظّارته السوداء نصف المؤطرة مرميّةً دومًا في مختلف أرجاء المنزل: على منضدة المطبخ، أو فوق مفارش الطاولات، أو على حافة حوض الغسيل في دورة المياه- مفرودة دائمًا ومستلقية كنوع غريب من الحيوانات لم يُصنّف بعد.

مراقبته يلعب التنس.

الطريقة التي تلتوي بها ركبتاه أحيانًا وهو يسير.

وجهه.

الشّبه الغريب بينه وبين أبراهام لينكون، وملاحظة الناس الدائمة لذلك.

جسارته مع الكلاب.

وجهه. مرّة أخرى، وجهه.

أسماك استوائية.

يتراءى لي الآن أنّه كان يفقد تركيزه في الكثير من الأحيان وينسى أين هو. كأنّه يفقد فجأة الاتصال مع نفسه، ممّا يجعله عُرضةً إلى الحوادث؛ لكم هشّم ظفر إبهامه عند استعماله للمطرقة، ولكم تعرّض لحوادث صغيرة لا حصر لها بالسيارة. يغيب ذهنه على الدوام إذا قاد سيّارته،

إلى الحدّ الذي تصير عندها مرافقته مرعبة. لطالما ظننت أن ما سيقتله هو حادث سيّارة. وفيما عدا ذلك، فإنّ كل شيء على مايرام: صحّته وافرة، لكأنّه غير قابل للأذى ومُستثنى من كل الأمراض الجسديّة التي صعقت البقيّة منّا. كأنما لا شيء يمكن أن يلمسه.

طريقته في الحديث: يبذل جهدًا هائلًا ليجذب نفسه خارج عزلته، كأنما صوته قد غطّاه الصّدأ، كأنه قد فقد عادة الكلام. يُهَمهِم كثيرًا ويتوقف، ويتنحنح، كأنه يريد أن يبصق في وسط الجملة. تشعر بوضوح أنه لم يكن مرتاحًا.

يتّبعُ نفس الأسلوب أيضًا إذا أراد أن يوقّع اسمه. كانت مراقبته وهو يقوم بذلك إحدى مُتع طفولتي. لم يكن بمقدوره ببساطة أن يضع القلم على الورقة ويكتب. كأنّه بغير وعي منه يؤجّل لحظة الحقيقة. إذ دائما ما يمهّد لذلك بحركة مسرحيّة خفيفة؛ يُدير يده لبوصة أو بوصتين خارج الورقة، كحشرةٍ طائرة تأزّ في الهواء وتقوم بحصر تركيزها على بقعة هبوطها. لقد كان ذلك أسلوبًا مُعدّلًا لطريقة آرت كارني في توقيع اسمه في فيلم العرسان الجدد.

وحتى أنّه كان ينطق الكلمات بطريقة مختلفة؛ يقولُ «عالا» مثلًا إذا أراد أن يقول «على».. كأنّ للحركة المسرحيّة في يده نظيرها في صوته أيضًا. ولصوته نغمةٌ مرحة، إذ كلّما أجاب على الهاتف قام بتحيّة المتّصل بـقوله «مرحباااا» بطريقة غنائيّة، ولكن لم يكن لذلك تأثير محبّب. فذلك يظهره بمظهر المعتوه إلى درجة ما، كأنه لم يكن متناغمًا مع العالم.

تلك أنواعٌ من التشنّجات التي لا يمكن علاجها أو محوها.

يدخل في أطوارٍ من الطِباع المُريبة والمجنونة من حين إلى آخر. وعندما يكون فيها، يُطلق دائمًا آراءً شاذّة لا يمكن أخذها على محمل الجد. فهو يستمتع مثلًا بتأييد الرّأي المخالف كي يُبقي على النقاش حيًّا. فإغاظة الناس تُبهج روحه. ويقوم غالبًا بعد إطلاق تعليقٍ تافه على أحدهم بقرص ساقه في موضع الدغدغة. ولا شيء أحبّ إلى قلبه من عرقلة ساقه إذاتمكّن من ذلك.

البيت مرّة أخرى.

مهما اتضحت من الخارج درجة إهماله له، فلقد آمن بطريقته هو وحسب في الاعتناء به. كان مثل مُخترعٍ غاضب يحمي سرّ آلة الزّمن التي صنعها، ولن يطيق أن يتلاعب بها أحد. سكنتُ وزوجتي في البيت لثلاثة أسابيع أو أربعة عندما كنّا نتنقّل بين شقق سكنيّة مستأجرة. وقد وجدنا حينها أن الظُّلمة في المنزل فادحة. فأزحنا الستائر عن النوافذ، محونا الظّلال وسمحنا للنور بأن يدرج إلى الداخل. وعندما عاد أبي من العمل ورأى ما فعلناه، انطلق في غيظٍ مفلوت الزّمام، قصيّ تمامًا عن أيّ استياء مرّ به من قبل.

لم ينفجر بغضب من هذا الطراز إلا نادرًا، ليس إلّا أن يكون محاصرًا ومُعتدى عليه، ومطحونًا من تواجد الآخرين حوله. قد تُطلق الأسئلة

عن المصاريف غضبًا من هذا النوع أحيانًا، وقد تُطلقه أيضًا بعض التفاصيل الصغيرة: ظلال بيته ربما، أو حتى صحن مكسور؛ الأقلّ واللاشيء والأتفه على الإطلاق.

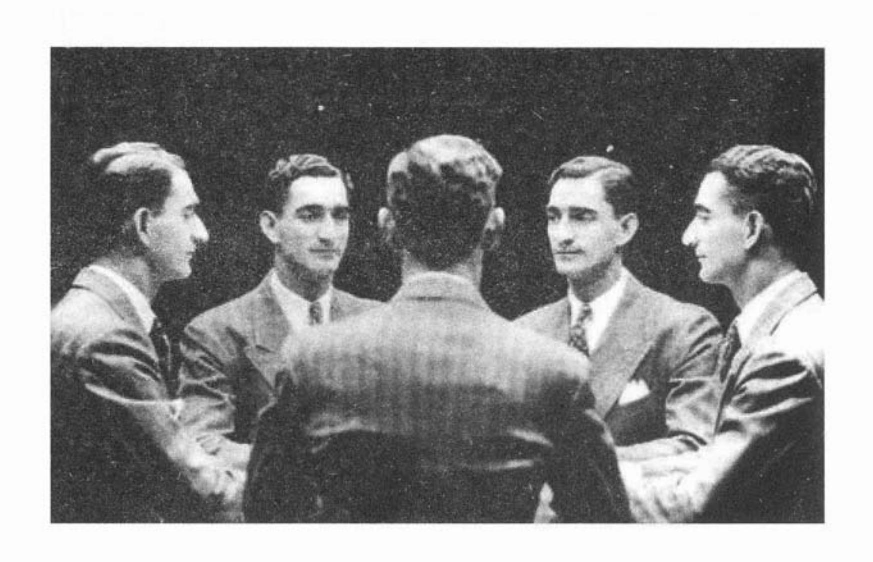
ولكن غضبه المنفلت هذا، والذي بدا عابرًا للوهلة الأولى، كان بين ثناياه على الدوام.. هذا ما اعتقدته باستمرار. كالبيت الذي كان مرتّبًا بشكل جيّد ولكنه يتهافت من الداخل؛ كان الرّجل نفسه رزينًا، خارقًا ورابط الجأش، ولكنه فريسةٌ للكدر، وفي داخله عنفوانٌ من السّخط لا يمكن إيقافه. كافح طوال حياته ليتحاشى مجابهة هذا العنفوان، مُربيًا سلوكًا تلقائيًا يسمح له بتجنّبه. إنه يركن إلى روتين ثابت يحرّره من لزوم أن يُبصر داخله عند وجوب اتخاذ أيّ قرار، ويطفُر الكليشيه بسرعة إلى شفتيه: «طفل جميل، بالتوفيق»، فهو لا يُتعب نفسه في البحث عن كلمات جديدة. نتج عن ذلك أنه صار سطحي الشخصيّة. وفي الوقت نفسه، كان ذلك ما أنقذه، وما جعله يحيا على الأمل، أو يحيا على الأقل إلى المدى الذي كان مؤهّلًا لأن يحياه.

من حقيبة صور سائبة: صورة فوتوغرافيّة مصطنعة، تمّ تصميمها في أستوديو مدينة أتلانتك في وقت ما خلال الأربعينيات. أُجلِس أبي إلى طاولة مستديرة، وتمّ التقاط عدّة صورٍ له من زوايا مختلفة، ثُمّ جُمعت كلها ورُكّبَت في صورة واحدة. طريقة التركيب: أُلصقت كلّ صورةٍ من صور أبي في جهةٍ مختلفة حول الطاولة، بحيث تظنّ للوهلة الأولى بأنك تنظر إلى مجموعة من الرّجال يجلسون حول طاولة مستديرة. وقد تظنّ أيضًا أن هؤلاء الذين يجلسون معه يشبهونه بشكل مُريب، رُبما بسبب

الأسى الذي يطوّقهم، أو الصّرامة الواضحة في وضعيّاتهم، لكأنّهم التمّوا ليعقدوا اجتماعًا صامتًا. وآنئذ، وأنت تتفحّص الفوتوغراف المصطنع، تبدأ بالتفطّن إلى أن هؤلاء الرّجال كلهم هم نفس الرجل. يُضحي الاجتماع اجتماعًا حقيقيًّا، لكأنّ أبي ذهب إلى الأستوديو ليستحضر نفسه، ليجتلبها عائدة من الفناء. لكأنه عبر مضاعفة نفسه يجعلها مموّهةً فتحتجب عن الآخرين، فهناك خمسة نسخٍ منه حول الطاولة. ولأن الفوتوغراف مصطنع، فإن التواصل البصريّ بين من يجلسون حول الطاولة هو أمرٌ مستحيل. فكل واحد منهم محكوم بالحملقة نحو الفراغ، كأنه وحسب يقف على طرف ما يبصره الآخرون دون أن يرى شيئا من الأساس، فهو ليس مؤهّلًا أصلًا لرؤية أيّ شيء.

إنها صورة للرّدى؛

بورتريه لرجل غير مرئي.



شيئًا فشيئًا، أقترب من الإحاطة باستحالة المهمّة التي نذرت نفسي لها. إن لديّ توجّس يدفعني إلى الذهاب باتجاه آخر في الكتابة، لكأنّني عرفتُ مُسبقًا ما أردت قوله، لكنني كلّما تقصّيته أكثر، تأكّدت بأن الدرب المؤدي إلى ضالتي ليس موجودًا. عليّ أن أبتكر الطريق في كل خطوة، ممّا يعني أنني لن أطمئن أبدًا إلى مكاني. إنّه شعورٌ بالسّير في دوائر، في تتبُّعٍ أبديٍّ نحو الماضي، في سفرٍ لأكثر من وجهة في نفس اللحظة. وحتى لو احتَلْتُ على الأمر وحقّقت بعض التقدّم، فإنني

لستُ بواثق مطلقًا من أن ذلك سيقودني إلى وجهتي التي أقصدها. فمجرّد تطوافك في صحراء ما، لا يعني أن هناك أرضًا موعودة.

عندما همَمْت بالبدء، خطر لي أنّ الكتابة ستحضر تلقائيًّا، كانبثاق الإغماءة. حاجتي لها كانت جبّارة حتى ظننت أن القصّة ستكتب نفسها بنفسها. لكن الكلمات تُقبل بتباطئ لغاية الآن. فلم أكن صالحًا في أحسن الأيّام لكتابة أكثر من صفحة أو صفحتين. أخالني مفجوعًا، مصابًا بلعنةٍ ساحقة، بفشلٍ ذهنيّ يوقفني عن التركيز فيما أقوم به. رصدتُ درب أفكاري، مرّةً تلو الأخرى، يمتدّ مبتعدًا عمّا هو أمامي. فبمجرّد أن أفكّر في أمرٍ ما، حتى يتداعى منه أمر آخر، ثم آخر، حتى تتراكم مجموعة من التفاصيل الكثيفة التي تجعلني أشعر بالاختناق. لم أكن من قبل مُدركًا تمامًا للصّدع الواقع بين التفكير والكتابة. غير أنني بدأت بالفعل، في الأيام القليلة الماضية، بالتوجّس من القصّة التي أحاول البوح بها. إنها مُتعذّرة على اللغة، كأن ما بلغَتْه في ضديّتها للّغة هو مقياس دقيق للمسافة القريبة التي أكون عليها من البوح بما هو هام، حتى إذا ما جاءت تلك اللحظة لأقول فيها شيئًا واحدًا ذا قيمة (على افتراض وجوده)، لا يعود بمستطاعي الجهر به.

كان لديّ برهانٌ على جُرح، أستشفّ الآن كم هو سحيق جدًا. وبدلًا من أن تُشفيني الكتابةُ كما ظننت أنها ستفعل، أبقت على الجرح فاغرًا.. وفي غير مرّة، أشعر بألمها ينبض في يدي اليمنى، لكأنني في كلّ مرّة ألتقط فيها القلم وأرصّ رأسه على الورقة، تتقطّع حبال يدي. فعوضًا عن دفن أبي، قامت هذه الكلمات بصيانته حيًّا أكثر من أيّ وقت مضى. أنا لا أشاهده الآن كما كان وحسب، ولكن كما هو، وكما سيكون. إنّه

من مكانه هناك يشنّ غاراته على ظنوني كلّ يوم، ينشُلها منّي دون إنذار: يتمدّد في التابوت تحت الأرض، لا يزال جسده سليمًا وأظافره وشعره في نموّ مستمر. أشعر بأنّ لا بُدّ لي، لو أردت استيعاب أيّ شيء، من النفاذ خلال هذه الصورة من الظلام.. عليّ أن أدلف من عتمة الأرض المطلقة.



مدينة كينوشا، ولاية ويسكونسون عام ١٩١١ أو ١٩١٢، لم يكن واثقًا حتى من التاريخ. ففي خضمّ الفوضى التي تعيشها عائلة كبيرة مهاجرة، لا تُعتبر سجلات الولادة أمرًا ملحًّا للحفاظ عليه. ما يهم هو أنه الخامس من بين خمسة أطفال ناجين- فتاة وأربعة صبية، ولدوا جميعًا خلال ثمان سنوات. وتلك هي أمّه في الصورة؛ ضئيلة ومفترسة، بالكاد تتحدّث الإنجليزية. لقد حافظت على شمل العائلة إذ كانت هي الحاكمة، هي الدكتاتور المستبدّ والمحرّك الذي لا يتحرك واقفاً في مركز الكون.

توفي والده في عام ١٩١٩، ممّا يعني أنّ والده لم يكن إلى جانبه في مراحل حياته كلها ما عدا طفولته المبكّرة. لقد حكى لي ثلاث قصص متباينة عن موت أبيه أثناء طفولتي. في الصّيغة الأولى: قُتل في حادثة صيد. وفي الأخرى: سقط من سلّم. وفي الثالثة: أرْدَته قتيلًا رصاصةٌ أطلقت عليه إبّان الحرب العالمية الأولى. عرفت أن هذه التعارضات لا معنى لها، لكنني افترضت أن مفادها هو أن أبي نفسه لم يكن عالمًا بالحقائق. ربما لأنه كان صغيرًا جدًا وقت حدوث ذلك، في السابعة من عمره وحسب. لقد قدّرتُ بأنه لم يُعطَ قط القصة الصّحيحة لموت والده. ولكن مع ذلك، لم يتكوّن عندي أيّ تصوّر مقبول لجهله هذا. ألم يقم حتى أحد إخوته بإخباره عمّا حدث؟.

ولكن أخبرني أبناء عمومتي جميعهم بأنهم أيضًا قد رُويت لهم قصص مختلفة عن طريق آبائهم. لم يأتِ أحدٌ على ذكر جدي. ولم أكن قد رأيت له صورة قط قبل السنوات القليلة الماضية. بدا الأمر وكأن العائلة قد اتّخذت قرارًا بالتظاهر بأنّ جدّي لم يوجد في الحياة على الإطلاق.

ضمن جملة الفوتوغرافات التي عثرت عليها خلال الشهر المنصرم في منزل أبي، وجدت صورة عائليّة تعود إلى أيّام نشأته المبكّرة في كينوشا. الأبناء كلهم في هذه الصورة: أبي، لم يكن عمره أكثر من عام واحد وقتها، ملتمًّا في حضن والدته، والأربعة الآخرون يقفون حولها بين أعشاب طويلة وغير مشذّبة. تقف خلفهم شجرتان، وخلفها منزل خشبيّ ضخم؛ هناك عالمٌ برمّته يبزُغ من هذه الصّورة العائليّة: زمنٌ مُفْرَد، مكانٌ مختلف، وإحساسٌ بماضٍ لا يمكن تعيينه. عندما نظرت إلى الصورة أوّل مرة، لاحظت أنها قد كانت ممزّقةً إلى نصفين ثم أُعيد

لصقها بطريقة غير متقنة، فقد كانت إحدى الأشجار في الخلفيّة معلّقة في الجو. حسبتُ أن تمزيق الصورة كان حادثًا عرضيًّا ولم أُفكّر في الأمر أكثر. ولكن حين تمعّنت في الصّورة مرّة ثانية، تفحّصتُ مكان التمزّق عن كثب، واكتشفت أمورًا لا بدّ وأنني قد كنت أعمى لكي أفوّتها سابقًا. لقد ظهرت لي رؤوس أصابع بشريّة تتشبّث بجذع أحد أعمامي؛ رأيت بشكل جليّ أن أحد أعمامي لم يكن يُسْند ذراعه على قفا أحد إخوته كما ظننت في البداية، ولكن على مقعدٍ لم يكن هناك. وأدركت آنئذ ما الذي كان مُريبًا في الصورة: لقد تمّ قصّ جدّي منها. كانت الصورة مشوّهة لأن شطرًا منها قد أُزيل. كان جدي يجلس على مقعد إلى جانب زوجته، وأحد أطفاله يقف بين ركبتيه. لكنّه لم يعد هناك، لم يبق منه شيء في الفوتوغراف سوى أنامله؛ لكأنّه يحاول الحَبْو عائدًا إلى الصورة من جُحر عميق في الزّمن، لكأنّه قد نُفي إلى بُعدٍ آخر. الأمر برمّته جعلني أقشعر.

علمتُ بقصّة موت جدّي عن طريق مصادفة عجيبة. لولاها، لبقيتُ أجهل ما حدث إلى الأبد.

سافرَت إحدى بنات عمومتي في عام ١٩٧٠ إلى أوروبا في إجازة مع زوجها. ووجدَت نفسها تجلس في الطائرة إلى جانب رجل مُتقدّم في السّن. وكما يفعل الناس غالبًا، يشرعون في تبادل الأحاديث بشكل عفويّ ليزجوا وقت السفر. إتضح أن هذا الرجل قد عاش في مدينة كينوشا! فاستأنست ابنة عمي بهذه المصادفة وأشارت إلى أن والدها قد عاش هناك في صباه. وبدافع الفضول، سألها الّرجل عن اسم عائلتها. وحين أخبرته: «أوستر»، تغيّر لونه وقال: «أوستر؟ ألم تكن جدتك

امرأة قصيرة نزقة وذات شعر أحمر؟ ألم تكن كذلك؟»، فأجابته: «بلى، إنها جدتي، امرأة قصيرة نزقة وذات شعر أحمر».

وعندها أخبرها بالقصّة. لقد جرت أحداثها قبل أكثر من خمسين عامًا، ولكن لم يزل الرّجل يتذكّر تفاصيلها البارزة.

حين عاد ذاك الرجل إلى منزله بعد الإجازة، قام بتتبّع تغطيات الجرائد التي ارتبطت بالقصة، وأخذ صورًا منها، ثم أرسلها إلى ابنة عمي مُرفقةً بهذه الرسالة:

الأعزاء ___ و ___

كان من الجيّد استلام رسالتكما. فعلى الرغم من أن المهمّة التي طلبتما مني القيام بها قد بدت معقّدة، فإنّ الحظّ قد حالفني؛ لقد خرجنا أنا وفران لتناول العشاء مع فيرد بلونس وزوجته. وكان والد فيرد هو من اشترى مبنى الشقق الذي كانت تملكه عائلتك في بارك آفينيو. إن السيّد بلونس أصغر مني بثلاث سنوات على أكثر تقدير، ولكنه يدّعي بأن القضية (في ذلك الوقت) قد أسرَته، وهو يتذكّر معظم تفاصيلها إلى حدّ كبير. لقد أكّد بأنّ جدّك هو أوّل شخص يُدفن في مقبرة اليهود في كينوشا (لم يكن لليهود قبل ١٩١٩ جبّانة في كينوشا، بل كانوا يدفنون أعزّاءهم إمّا في مدينة شيكاغو أو ميلووكي). وعن طريق هذه المعلومة، لم أواجه صعوبةً في تحديد البقعة التي دُفن فيها جدك. ولذا، تمكّنت من تحديد التاريخ. ستجدين التفاصيل

في المصوّرات التي أرفقتها لك مع الرسالة.

أطلب منك فقط ألّا يعلم والدك أبدًا عن هذه المعلومات التي أمرّرها لك. لا أريده أن يصاب بحزن أكثر ممّا عاناه سلفًا.

أتمنّى أن تستنيري الآن عن سبب تصرّفات أبيك الغريبة خلال السنوات الماضية.

أعزّ التحايا لكما،

كين وفران.

تغطيات الصّحف تقبع على مكتبي. والآن، لأن وقت الكتابة عنها قد حان، أجدني مندهشًا من نفسي إذ أنشغل بأيّ أمر أستطيعه كي أُرجئ الكتابة. ماطَلتُ الصّباح كلّه. أخذت القمامة إلى حاوية النفايات. لعبت مع دانيال في ساحة المنزل لساعة تقريبًا. قرأت جريدة هذا اليوم بأكملها، قرأت حتى تلك الأسطر التي في هوامش صفحاتها تمامًا والتي تحوي نتائج تدريبات الربيع لمباريات البيسبول. وحتى هذه السّاعة، وأنا أكتب هنا عن نفوري من الكتابة، أُلفي نفسي مضطربًا وعاجزًا. فما إن أكتب القليل من المفردات، حتى أقفز من مقعدي وأذرع المكان، وأنصت إلى الرّيح في الخارج وهي تخبط جدران المبنى بأعمدة المزاريب الفالتة. يُمكن لأضأل الأشياء أن يشتّتني.

ما كان ذاك بسبب جزعي من الحقيقة. لست خائفًا حتى من قولها. جدّتي قتلت جدّي. ففي الثالث والعشرين من يناير عام ١٩١٩، أي قبل وفاة أبي بستين عامًا بالضبط، قامت أمه بإطلاق النار على أبيه وأردته قتيلا في مطبخ منزلهم في كينوشا. لم تضايقني الوقائع نفسها أكثر ممّا توقعت. الأمر الصّعب حقّا هو رؤيتها في الصحف؛ لقد نهضَت من فراشها الخاص إذا جاز التعبير، خرجت من حقل الأسرار العائليّة وتحوّلت إلى قضيّة عامّة. هناك أكثر من عشرين مادّة مدوّنة، أغلبها مطوّلة، وتعود كلّها إلى صحيفة أخبار كينوشا المسائية. لا تزال هذه الولاية تملك القدرة على الإدهاش بالرغم من أنها بالكاد تهتم بالقراءة، فهي محجوبة تمامًا عن وسائل الحداثة بسبب هرم سكانها وإيمانهم بأخطار التصوير. إنهم محافظون قياسًا إلى مستوى الصّحافة في ذلك الوقت، ولكن لم يجعلهم ذلك أقلّ إثارة. إنهم خليطٌ من الفنّانين والمندفعين عاطفيًّا، وزِد على ذلك حقيقة أن المتورّطين في القضيّة هم من اليهود، وبالتالي فإن ما حدث هو محطّ استغراب وتساؤل بحكم معرفتهم للأطراف المعنيّة، وهذا ما وهب التغطيات الواردة في الصحيفة نغمة اشمئزاز واحتقار. ومع ذلك، لم تخل الأحداث الواردة في التغطيات الصحفية من بعض الهنات، ولكن يبدو أن الوقائع كلها هنا. لا أظن أنهم أوضحوا كل شيء، ولكن لا شك في أنهم قد أوضحوا الكثير. لا يمكن لصبيّ مَرّ بمثل تلك الظروف أن ينجو من تأثيرها تمامًا في رجولته.

من خلال قراءتي للأخبار الصحفيّة التي رافقت تغطيات الجريمة

وملأت فراغ الصفحات من حولها، استطعت أن أعرف بعض الأحداث التي تناولتها الصّحف باهتمام أقلّ ممّا تستحق في ذلك الحين.. أحداث شبه منفيّة مقارنة بحدث جريمة القتل؛ مثلًا: استعادة جثّة روزا لوكسيمبورغ من قناة مياه لاندوير. ومثلًا: مؤتمر السلام في فرساي. وهكذا دواليك، يومًا تلو الآخر: قضيّة يوجين ديبس، وخبرٌ عن فيلم كاروسّو الأوّل (الأحوال؛ قيل بأن الحسّ الدرامي فيه عال وأنه مليئ بما يهيّج رقّة القلوب)، وتقارير معارك الحرب الأهلية الروسية، وجنازات كارل ليبنخت مع واحد وثلاثين عضوًا من تحالف سبارتاكوس (أكثر من خمسين ألف شخص مشوا في موكب طوله خمسة أميال. عشرون في المئة تمامًا من هذ الحشد يحملون أكاليل الزهور. لم يكن هناك صياح ولا هتافات). وتمّ التصديق على قرار وطني لحظر الكحول (ويليام جينينغز براين- الرّجل الذي جعل من عصير العنب مشهورًا- كان هناك بابتسامة عريضة)، وإضراب عمّال النسيج في مدينة لورانس من ولاية ماساشوستس، بقيادة إتحاد عمّال المصانع في العالم؛ واغتيال إيمليانو زاباتا (ثائر خارج على القانون في جنوب المكسيك)، وينستون تشرشل، بيلا كون، بريمير لينين (خطأ غير مقصود)، وودرو ويلسون، ومباراة ملاكمة بين ديمبسي وويلارد.

قرأت تغطيات الجريمة عشرات المرّات، وفاجأني أنها لم تطرق مناماتي ولم تُقلقني، ولكنها ترصّدتني بكلّ قِواها الخادعة في عقلي الباطن، مُحرّفةً الواقع كما تفعل الأحلام. لقد غشت العناوين العريضة للجريمة على كل ما عداها من أمور حدثت للعالم في تلك الفترة، فقد أَوْلتها الصّحف اهتمامًا خاصًّا يُشبه ما نوليه من اهتمام للأمور التي تجري في حيواتنا الخاصّة. إنها تبدو إلى حدٍّ ما كاللوحات التي يرسُمها الطّفل

حين يُعكّر صَفْوه خوفٌ يتعذّر تفسيره: فالطفل يُعطي الشيء الأكثر تأثيرًا عليه حجمًا كبيرًا جدًا في اللوحة. هكذا تسقط كلّ الزوايا الأخرى الممكنة لرواية ما حدث في سبيل اتّساق رواية واحدة عنه، رواية لا تُمليها العين، بل حاجات المخيّلة.

لم أُطالع هذه التغطيات كتاريخ فقط، بل أيضًا كرسوم كهفيّة قد اكتشفت في الجدران الداخليّة لجمجمتي نفسها.

عناوين الصحف في اليوم الأول، الرابع والعشرين من يناير، تغطّي أكثر من ثلث الصفحة الأولى؛

مقتل هاري أوستر

والشرطة تحتجز زوجته

سقط قتيلًا أحد أبرز مُلّاك العقارات سابقًا

في مطبخ منزله ليل الخميس بعد مشاحنة عائليّة

حول المصاريف وعشيقةٍ سريّة!

زوجةٌ تقول بأن زوجها قد انتحر

رجلٌ ميّت: رصاصةٌ تُدمي عنقه وأخرى في وركه الأيسر

وزوجته تعترف بأن المسدس الذي أصيب به تعود ملكيّته إليه.

طفلٌ في التاسعة من عمره شاهد على المأساة

وقد يحمل مفتاح اللّغز

طِبقًا للجريدة، «انفصل السيّد أوستر عن زوجته لبعض الوقت سابقًا، وهناك دَعوى طلاق مُعلّقة في دائرة القضاء في كينوشا. لقد اختصموا على أمور ماليّة في أوقات مختلفة. واختصموا أيضًا على حقيقة أن السيّد أوستر تجمعه صداقة (بشكل غير واضح) بفتاة شابّة تعرفها زوجته بإسم فاني. ويُعتقد بأن أمر فاني قد كُشف في المشاجرة التي حدثت بين السيّد أوستر وزوجته قبل واقعة إطلاق النار...».

ولأن جدتي لم تعترف بما اقترفته إلّا في اليوم الثامن والعشرين، فقد كانت الأحداث مبهمة حقًّا قبل ذلك. عاد جدّي إلى المنزل (وقد كان في السادسة والثلاثين من عمره) في الساعة السادسة مساءً من يوم وفاته كانت معه بزّتان لولديه الأكبرين. وق صرّحت السيّدة أوستر بأنها قد ذهبت أثناء ذلك إلى غرفة النوم لتضع الإبن الأصغر سام في مخدعه لينام. وقد أكّد سام (أبي) بأنه أثناء انطوائه في لحافه لبقيّة الليل، لم ير أمّه

تأخذ المسدس من تحت فراشها.

يبدو أنّ جدّي قد ذهب إلى المطبخ كي يُصلح مفتاحًا كهربائيًّا مُحترقًا، وأنّ أحد أعمامي (ما قبل الأخير) كان يرفع له شمعةً كي يُحسن الرؤية. «صرّح الصّبي بأن الذّعر قد صفقه بعُنف عند سماعه لطلق النار ورؤيته ومضة المسدس، ففرّ من المكان». طبقا لأقوال جدتي، فإن جدي قد أطلق النار على نفسه. وقد اعترفت بأنهما كانا يختصمان حول المال، وأكملت حديثها: «ثمّ قال: لا بدّ من نهاية لأحدنا. ثم هدّدني. لم أعرف بأن المسدس كان بحوزته. لقد أبقيته مدسوسًا تحت فراشي وهو يعرف ذلك.»

ولأنّ جدتي لا تتحدث الإنجليزية تقريبًا، فإني أفترض أنّ هذا التصريح، وكل التصاريح المنسوبة إليها، هي من اختراع المراسل الصحفي. ومهما كان ما صرّحت به، فإن الشرطة لم تصدّق أيًّا منه. «أعادت السيّدة أوستر رواية قصّتها على مسامع العديد من مسؤولي الشرطة دون تحريف يُذكر، وقد زعمت أنها على قدر كبير من التعجّب عندما أخبروها بأن الشرطة ستقوم باحتجازها. وبرقّة وارفة، قبّلت سام الصّغير وتمنّت له ليلةً سعيدة، ثمّ انصرفت إلى سجن البلدة.»

«كان طِفلا عائلة أوستر ضيوفًا على قسم الأمن ليلة البارحة، وقد ناما في غرفة استراحة أفراد الشرطة، وبدا هذا الصباح أن الصبيّين قد تعافا تمامًا من أيّ هلع قد عانوه جرّاء المأساة التي حدثت في منزلهما.»

وفي نهاية التغطية، ترد هذه المعلومة عن جدّي: «تعود أصول هاري أوستر إلى النمسا. جاء إلى هذه القارّة قبل عدّة سنوات وسكن

شيكاغو، ثم كندا، فكينوشا. وطبقًا للقصّة التي روتها الشرطة، فإن هاري أوستر قد عاد مع وزوجته لاحقًا إلى النمسا، ولكنه بعد ذلك عاد وحيدًا إلى كينوشا وانضمّت إليه زوجته عندما استقرّت أعماله هناك. اشترى السيّد أوستر عددًا من المنازل في أحياء مجاورة، وامتدّت أعماله إلى نطاق أوسع لبعض الوقت. لقد شيّد المبنى الكبير ذا الثلاثة طوابق في ساوث بارك آفينيو، و شيّد آخر عُرف بـشقق أوستر في شارع ساوث إكسشينج. وقد مرّ بتقلّبات ماليّة قبل ستة أشهر أو ثمانية...»

«في وقتٍ سابق، قامت السيدة أوستر بمناشدة الشرطة كي تساعدها في مراقبة زوجها. فقد زعمت أنّه على علاقة بفتاة شابّة، واعتقدت أن على الشرطة التحقيق معها. هكذا عرفت الشرطة لأوّل مرة عن أمر المرأة التي تُدعى فاني.»

«شاهد أناسٌ كثر السيّد أوستر في نهار الخميس، وتجاذبوا معه أطراف الحديث. وقد صرّحوا بأنّه كان سَويًّا ولم تظهر عليه أيّة علامة تدل على رغبته في الانتحار...»

انعقد استجواب هيئة التحقيق في اليوم الثاني. ولأنّ عمّي الذي كان يرفع الشمعة لجدي في المطبخ هو الشاهد الوحيد على الحادثة، فقد أستدعي إلى الاستجواب كي يُدلي بشهادته. «صبيٌّ صغير ذو عينين حزينتين ويُدير باضطراب قبّعة رأسه، قام عَصْر الجُمعة بكتابة الفصل الثاني من لغز مقتل السيّد أوستر. كانت محاولاته لإنقاذ اسم عائلته مثيرة للشّفقة بشكل تراجيدي. فعلى الرغم من تكرار مساءلته

عمّا إذا كان والداه يختصمان أم لا، فإن جوابه كان بأنهما «يتناقشان لا أكثر»، حتى تذكّر على ما يبدو بأنه أقسم أمام المحكمة على قول الحقيقة، فأضاف أخيرًا «وربما يختصمان، إلى درجة بسيطة فقط». تصف التغطية الصحفية موقف هيئة المحلّفين بقولها «أثارت استغرابهم استماتة الصبي للتستّر على أمّه وأبيه.»

كان جليًّا أن فكرة الانتحار لم تكن لتنطلي على المحققين، فقد كتب المراسل الصحفي في الفقرة الأخيرة من التغطية «تطورات مذهلة لمّح إليها المسؤولون عن القضية .»

ثم أقيمت الجنازة ومنحت المراسل المجهول فرصةً لمحاكاة إحدى تلك السيناريوهات المعروفة في تمثيليّات المسرح الفيكتوري؛ هكذا لم تعد الجريمة فضيحة وحسب، بل تحوّلت إلى ملهاة مثيرة:

لم تذرف الأرملة الدمع على قبر أوستر

مخفورةً بالشرطة، تحضر السيّدة آنّا أوستر

جنازة زوجها هاري أوستر يوم الأحد

«في صباح الأحد، وبعيون جافّة ودون أدنى ملمح لعاطفة أو أسى، تواجدت السيّدة أوستر الموقوفة لعلاقتها بالموت الغامض لزوجها هاري أوستر في مراسم جنازة القتيل تحت الحراسةالمشددة.»

« لم يبد على السيّدة أوستر أقلّ إشارة على الوهن، لا أثناء الصّلاة على زوجها في الكنيسة، حيث ألقت أوّل نظرةٍ على وجهه الميّت منذ مساء الخميس، ولا في المدفن. الأمر الوحيد الذي قامت به في خضم الإرهاق المروّع لهذه المحنة هو أنها طلبت، عندما انتهى الدّفن، بأن يُعقد لها مؤتمر صحفيّ بعد الظهيرة مع ريف.م.هارتمان: قسّ تجمّع بيناي زيديك.»

«عندما تمّت مناسك الدفن، شدّت السيّدة أوستر برزانةٍ طوقها المصنوع من فراء الثعلب حول عنقها، وأوعزت إلى الشرطة بأنها مستعدة للرحيل...»

«وبعد طقوس شعائريّة قصيرة، تشكّل موكب الجنازة في شارع ويسكونس، فطلبت السيّدة أوستر السماح لها بالذهاب إلى المقبرة أيضًا، وقد أذنت لها الشّرطة فورًا بذلك. بدت وكأنها منزعجة لعدم توفير مركبة تقلّها.. ربما تذكّرت ذلك الفصل القصير الذي عاشته من رخاء الحياة وثراء المعيشة عندما كان ليموزين أوستر يجوب كينوشا...»

«طال امتحان المشاعر وامتدّ، إذ استغرق تجهيز القبر وقتًا إضافيّا. وفي تلك الأثناء، قامت السيّدة أوستر بمناداة صبيّها الأصغر سام كي يقترب منها؛ شدّت طَوْق معطفه بإحكام حول عنقه، ثم حدّثته بخفوت. وفيما عدا ذلك، فقد بقيت صامتة أثناء القيام بالمناسك وما تلاها...»

«هناك شخصيّة بارزة في مراسم الدفن: ساموِيل أوستر، شقيق القتيل. جاء من ديترويت. وكان يرعى باهتمام بالغ الصّبية الصغار ويواسيهم في حزنهم.»

«من خلال مظهره وتصريحاته، ظهر ساموِيل موجوعًا بعمق لفقد أخيه. وأبدا بوضوح نكرانه لفرضيّة الانتحار، ونبس بتعليقات لها مذاق اتّهام الأرملة بما حدث...»

« ألقى القس ريف.م.هارتمان موعظة بليغة عند القبر. كان يندب حقيقة أن أوّل شخص يُدفن في هذه الجبّانة البِكْر لليهود هو واحد مات نتيجةً للعنف، وقُتل في أوج حياته. بعدها، أثنى على أعمال هاري أوستر واستنكر رحيله المبكّر.»

«لم تحرّك الأرملة ساكنًا أثناء مديح القسّ لزوجها الميّت. فتحت معطفها بدون اهتمام ليستطيع البطريرك أن يُحدث شقًّا في سترتها المشغولة؛ إنها إشارة رمزيّة للحزن، مسنونة في الديانة العبرية.»

« المسؤولون في كينوشا فشلوا في إسقاط شبهة قتل السيّدة أوستر لزوجها...»

حملت جريدة اليوم الثاني للجنازة، السادس والعشرين من يناير، أخبار الاعتراف. إذ بعد اجتماع جدتي بالحاخام، طلبت انعقاد مؤتمر مع رئيس الشرطة. «عندما دلفَت القاعة، ارتعدت قليلًا، وارتبكت بوضوح عندما قام رئيس الشرطة بتقريب الكرسي لها: «أنتِ تعرفين

ما الذي أخبرنا به صبيّك». وبدأ الفصل الأخير عندما أدرك رئيس الشرطة أن اللحظة النفسية المناسبة قد حانت، فقال لها: «لا تريدين منّا الظّن بأنه يكذب علينا، هل تريدين ذلك؟». راحت الأم، بوجهها الذي استمرّ لأيّام مقنّعًا كي لا تُفصح عن الرّعب الكامن خلفه، بوجهها الذي مزّق أخيرًا مظهره الزّائف وصار فجأة رقيقًا، تجهش باكيةً بسرّها الرّهيب: «إنه لا يكذب عليكم؛ فكلّ ما قاله لكم صحيح؛ لقد رميته بالرّصاص، وأريد أن أعترف»».

كان هذا اعترافها الرّسمي: «إسمي آنّا أوستر. أطلقت النار على هاري أوستر في مدينة كينوشا، ولاية ويسكونسون، في اليوم الثالث والعشرين من يناير عام ١٩١٩. تناهى إلى سمعي عن طريق الناس بأنّني قد أطلقت ثلاث رصاصات، ولكنني لا أتذكر على وجه التحديد عدد الرصاصات التي أطلقتها ذاك اليوم. كان باعثي لإطلاق النار على المدعو هاري أوستر هو أنه قد أقدم على الإساءة إلي. كنت مصابة بشيء من الجنون عندما أطلقت النار على المدعو هاري أوستر. لم أفكّر قط برميه بالرّصاص، إلى أن جاءت تلك اللحظة التي أطلقت فيها النار عليه. أعتقد بأن هذا هو المسدس الذي أطلقت به النار على المدعو هاري أوستر. أُقدّم اعترافي هذا بكامل حريّتي ودون إكراه.»

ويُتابع المراسل «على الطاولة المقابلة للسيّدة أوستر، يقبع المسدس الذي أطلقت به الرصاص على زوجها وأردته قتيلا. عندما جاءت على ذكره، تحسّسته بتردّد، ثم سحبت يدها بذُعر، مُنتفضةً من الرّعب. ودون أن يتحدث، نحّى رئيس الشرطة المسدس جانبًا وسأل السيّدة أوستر ما إذا كانت مهتمّة بإضافة أقوال أخرى.»

ردّت برباطة جأش «هذا كل شيء الآن»، فردّ رئيس الشرطة «وقّعي هنا وسأضع علامتي بعدها».

«تمّت الاستجابة لطلباتها بالكامل، هكذا عادت للحظةٍ إلى أسلوب الأثرياء. أكّدت بأن هذا هو توقيعها، ثم سألت أن تؤخذ إلى زنزانتها.»

في خضمّ الحوار لترتيب استعدادات اليوم التالي في المحكمة، قام محاميها بتقديم استئنافٍ إلى القاضي. «مُلفّعة بمعطف مخمليّ ووشاح من فراء الثعلب، دخلت السيّدة أوستر قاعة المحكمة. ابتسمت نحو صديقة لها كانت تجلس بين الحضور، ثم أخذت مجلسها عند طاولة وكيلها.»

وبحضور المراسل نفسه، أجريت جلسة الاستماع، وقد كانت «خاليةً من الأحداث». ومع ذلك، لم يستطع المراسل مقاومة إبداء هذه الملاحظة «وقعَت حادثةٌ أثناء عودو السيّدة أوستر إلى الزنزانة، ممّا طرح تساؤلًا صريحًا حول حالتها الذهنيّة.»

«كانت هناك امرأة موقوفة بتهمة علاقتها برجل متزوج، وقد جُلبت إلى السجن وحُبست في زنزانة محاذية لزنزانة السيّدة أوستر. وعندما صادف وأن رأتها، سألت عن هويّة القادم الجديد، وعلمت بحيثيّات قضيّتها.»

فصرخت السيّدة أوستر: «يجب الحكم عليها بالحبس لعشر سنوات». كان باب الزنزانة الحديدي يُغلق عليها دون رحمةٍ أثناء ذلك «إنها امرأة من هذا الصنف من تسبّبت بوجودي في هذا المكان.»

وبعد بعض النقاشات القانونية المعقّدة حول كفالتها، والتي نُشرت في الصحافة بإسهاب في الأيّام القليلة اللاحقة، تمّ إطلاق سراحها. سألت المحكمة محامي الدفاع: «هل لديك أدنى فكرة بأن هذه المرأة قد لا تحضر إلى المحاكمة؟». فأجاب المحامي بيكر: «أين يمكن لامرأةٍ ترافق خمسة أطفال أن تذهب؟ إنها متشبّثة بهم، وتستطيع المحكمة أن ترى أنهم أيضا متشبّثون بها.»

هدأت الصحفة لمدّة أسبوع. ولكن في الثامن من فبراير، نشرت خبرًا عن «التأييد الرائج لأسباب الجريمة بين متابعين كثر، وقد نُشرت تعليقاتهم المؤيدة للسيدة أوستر في صحف باللغة العبريّة في شيكاغو. وحملت بعض هذه الجرائد أعمدةً تُجادل في قضيّة السيّدة أوستر وتصرّح بتأييدها القوي للجنة الدفاع».

«بعد ظُهر الخميس، جلست السيّدة أوستر برفقة أحد أبنائها في مكتب محاميها، فيما كانت مقاطع من تلك الأعمدة الصحفيّة تُقرأ على مسامعها بصوت عال. فما كان منها إلا أن أجهشت بالبكاء كطفلة.»

«صرّح المحامي بيكر هذا الصباح بأن الدّفاع عن السيّدة أوستر سيكون شكلًا من الجنون العاطفي.»

«من المتوقّع أن تكون محاكمة السيّدة أوستر واحدةً من أكثر محاكمات الجرائم إثارة على الإطلاق في دائرة محاكم مقاطعة كينوشا. ومن المحتمل أن يقوم محامي الدفاع بالتركيز على محور القصّة الإنساني خلال المحاكمة وأن يُطوّر منه.»

بعدها، لم يُنشر شيء يتناول القضيّة في الصّحف لمدّة شهر كامل. حتى

جاء يوم العاشر من شهر مارس حين برزت عناوين الصحف على هذا النحو:

آنّا أوستر حاولت الانتحار

جرت محاولة الانتحار في مدينة بيتربورو من مقاطعة أونتاريو عام ١٩١٠. قامت السيّدة أوستر وقتها بجعل الغاز يتسرّب في مكان سكنها بعد تناولها لحمض الكربوليك. راح المحامي يعرض هذه المعلومة أمام المحكمة بإسهاب ليضمن تأجيل المحاكمة لوقت يكفيه لجمع الإفادات. «كان المحامي بيكر يعتقد بأن المرأة، في محاولة انتحارها تلك، قد عرّضت أيضًا حيوات اثنين من أطفالها للخطر، وأن قصّة محاولة الانتحار هذه مهمّة لأنها توضح الحالة الذهنية المشوّشة التي تعاني منها السيّدة أوستر.»

تمّ تأجيل المحاكمة من السابع والعشرين من مارس إلى السابع من أبريل. تلا ذلك أسبوع من الصمت. ثمّ، في الرابع من أبريل، بينما أخذت الأمور تركد وتهدأ، حدث تطوّر جديد.

«قام ساموَيل أوستر اليوم بعد العاشرة صباحًا بمحاولة فاشلة للانتقام لموت شقيقه هاري أوستر حيث أطلق النار على السيّدة أوستر. حدث إطلاق النار قريبًا من بقالة ومخازن ميلر.»

«راح ساموَيل يقتفي السيّدة أوستر حتى باب البقالة، ثم أطلق النار عليها لمرّة واحدة. وعلى الرغم من أنها لم تُصَب بشيء، فإنها انهارت على الرصيف، بينما عاد ساموَيل إلى البقالة قائلًا بشهادة الشهود «حسنًا، أنا سعيد بما فعلت»، ثم انتظر بهدوء ليتم اعتقاله.»

«كان ساموَيل مُنهار الأعصاب تمامًا في قسم الشّرطة، وأوضح سبب إطلاقه النار على أرملة أخيه».

«قامت هذه المرأة بتدمير حيوات أمّي وإخوتي الأربعة جميعًا. وقد حاولتُ مساعدتها ولكنها لم تسمح لي بذلك.» ثمّ، أثناء ما كان يقاد إلى الزنزانة، بكى قائلًا: «لكن الله سيأخذ حقي، أؤمن بذلك.»

«في زنزانته، صرّح ساموَيل بأنه فعل ما بوسعه لمساعدة أطفال شقيقه المقتول. إن حقيقة أن المحكمة قد رفضت تعيينه كمسؤول عن عقارات أخيه لأن الأرملة تملك نصيبًا منها قد أثّرت على قدراته العقليّة مؤقتًا. هكذا علّق على قرار المحكمة صباح هذا اليوم: «إنها ليست أرملة، إنها مجرمة، وينبغي ألّا تُعطى أيّ نصيب من أي شيء»».

«لن يتمّ الاستعجال في استدعاء ساموَيل للمثول أمام المحكمة

بسبب ما قام به لكي يتسنّى للتحقيق في جريمة قتل أخيه بأن يكتمل. إذ تدّعي الشرطة بأن موت أخيه وأحداث أخرى تبعتها قد شوّشت على ذهنه وجعلته غير مسؤول عن تصرفاته، وعليه أن ينتظر نتائج المحاكمة كي يعود إلى رشده. فقد عبّر عن رغبته في أن يموت هو أيضًا، وتمّ اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنعه من انهاء حياته.»

كان لصحيفة اليوم التالي ما تضيفه «على الأحرى، قضى ساموبل ليلة ثقيلة في سجن المدينة. إذ وجده رجال الأمن لأكثر من مرّة ينشج في زنزانته، وقد بدا في وضع هستيري.»

«تمّ التّصريح بأن السيّدة أوستر قد عانت من «أعصابها المنهارة» نتيجة الرّعب الذي مرّت به أثناء الاعتداء على حياتها يوم الجمعة. لكن تمّ الإعلان بأنه سيكون بمستطاعها التواجد في المحكمة عندما يُرفع النداء بافتتاح قضية القتل المرفوعة ضدها مساء الإثنين.»

بعد ثلاثة أيام، توصّل المجلس إلى تصوّر معيّن عن القضية، مُجادلًا بأن الجريمة كانت عن سبق إصرار وترصّد. واتكّأ المدّعي العام بشكل كبير على شهادة السيّدة ماثيوز؛ الموظفة في بقالة ميلر، وقد ادّعت بأنّ السيّدة أوستر قد «جاءت إلى البقالة في يوم الجريمة ثلاث مرّات لاستخدام الهاتف. قامت في إحداها بالاتصال على زوجها وطلبت منه المجيء إلى المنزل كي يصلح الإنارة. قالت بأن السيّد أوستر قد وعدها بالمجيء في السادسة مساء.»

ولكن طلبها منه المجيء إلى منزل لا يعني أبدًا أنها عزمت على قتله.

لم يكن هناك من فرق على أيّة حال. مهما كانت الوقائع التي حدثت، فقد أمكن لمحامي الدفاع بدهاء أن يقلب كل شيء لمصلحته. كانت استراتيجيّته هي أن يقدّم أدلّة عاطفيّة على صعيدين: في اليد الأولى، إثبات الخيانة من جانب جدّي، وفي الأخرى، شرح تاريخي للحالة الذهنية غير المستقرّة التي تعانيها جدتي. هكذا تتعاضد الأدلّة لتقديم قضيّة مبرّرة للقتل «بسبب الجنون». سينجح أحد جانبي استراتيجيّة الدفاع بأداء المهمّة.

كانت كلمة المحامي بيكر في افتتاحيّة الجلسة محسوبة لاستدرار أيّة أونصة ممكنة من الشّفقة من هيئة المحلّفين. «روى كيف أن السيّدة أوستر قد شاركت زوجها الكدح طوال حياتها لبناء السّكن والسعادة الذين كانا من نصيبهما في كينوشا بعد أن اجتازا سنوات طويلة من الشّقاء. وأكمل المحامي بيكر: «وعندئذ، بعد أن جاهدا معا لبناء هذا السّكن، ها هي تجيء امرأة فاتنة من المدينة وتبعد السيّدة أوستر جانبا كممْسحة. بدلا من توفير الطعام لعائلته، قام زوجها بوضع المدعوّة فاني كوبلان في شقة في شيكاغو. المال الذي ساعدت هي على جمعه كان ينثر على امرأة أكثر غواية منها، وبعد هذا الاعتداء، هل هناك أيّ شك بأن قدراتها العقلية قد تشوّشت وأنها، للحظة واحدة، قد فقدت السيطرة على حواسّها؟.»»

الشّاهد الأوّل للدفاع هي السيّدة إيليزابث قروسمان، شقيقة جدتي الوحيدة، والتي عاشت في مزرعة قريبة لمدينة برونسويك من ولاية نيوجيرسي. «قدّمت شهادة باهرة، فقد روت بسلاسة ملحمة حياة السيّدة أوستر؛ ولادتها في النمسا وموت والدتها وهي في السادسة من

عمرها وحسب؛ وعن الرحلة التي جمعتهما معًا إلى هذه البلاد بعد ذلك بثماني سنوات؛ وعن ساعات العمل الطويلة في حياكة القبعات والأغطية في إحدى المحلّات النسائية في نيويورك». راحت أختها تُعلي من شأنها راويةً كيف استطاعت امرأة مهاجرة من خلال الحياكة والتطريز من جمع بضع مئات من الدولارات. ثمّ روت حيثيّات زواج أختها بالسيّد أوستر عند بلوغها الثالثة والعشرين فقط، واستفاضت في الحديث عن مشاريعهما التجارية معًا؛ عن فشلهما في دكّان صغير للحلويّات، وعن رحلتهما الطويلة إلى مدينة لورينس من ولاية كانساس، حيث أرادا المحاولة مرة أخرى، فولد طفلهما الأوّل؛ وعن عودتهما إلى نيويورك وفشلهما الثاني في مشروع تجاري انتهى بإفلاسهما التام ورحيل السيّد أوستر إلى كندا؛ وكيف أن السيّدة أوستر قد التحقت بزوجها في كندا بعد مكوثها وحيدة تتدبّر أمرها؛ وكيف أنّ السيّد أوستر قد هجر زوجته وأبناءه الصغار بقوله أنه أراد أن «يشقّ طريقه وحيدًا»، وكيف أنه أخبر زوجته بأنه يقتطع خمسين دولارًا من مصروف البيت لكي يعثر على مال كاف عند موته كي يُدفن بشكل لائق. قالت بأنهما أثناء ما كانا يقطنان كندا، كانا معروفين عند الناس بلقب السيّد والسيّدة هاري بول.

«شَرخٌ صغير في القصّة لم يكن ممكنًا للسيّدة قروسمان أن تملأه، فتولّى ذلك رئيس الشرطة السابق آرشي مور، وشاهدٌ يُدعى آبراهام لو، من مقاطعة بيتربورو في كندا. روى الرجلان عن رحيل السيّد أوستر من بيتربورو، وعن حزن زوجته حينها. وقالا بأنّ السيّد أوستر قد ترك بيتربورو في الرابع عشر من يوليو عام ١٩٠٩. وفي الليلة التالية على رحيله، عثر السيّد مور على السيّدة أوستر في غُرفةٍ من منزلهم الرّث وهي تُعاني من أعراض تسرّب الغاز إلى أرجاء المنزل؛ فقد كانت

تستلقي هي وأطفالها على مفارش ممدودة على الأرض بينما كان الغاز ينطلق من الفُرن، من أربعة عيون غاز مفتوحة. روى السيّد مور أيضًا عن عثوره لاحقًا على قنّينة من حمض الكربوليك في الغرفة، وأن بقايا من الحمض كانت على شفتي السيّدة أوستر. قال الشّاهد: «تمّ نقلها إلى المشفى، وبقيت مريضة لعدّة أيّام. وقد أدلى الرّجلان برأيهما الخاص في حالة السيّدة أوستر، وأنّها أظهرَت من دون شك علامات على الجنون أثناء محاولتها إنهاء حياتها في كندا.»»

كان أكبر طفلين في أسرة أوستر من ضمن الشهود. وقام كل واحد منهما بتأريخ مشاكل والديه المنزليّة. قيل الكثير عن المدعوّة فاني، وعن المشاحنات المتكررة في البيت. «قال بأن للسيّد أوستر عادة رمي الصحون وأواني الزجاج، وحتى أنه في إحدى المرّات قام بجرح ذراع أمّه بشكل سيّئ للغاية وكان من الضروري الاتصال بطبيب كي يعتني بها. وصرّح أيضًا بأن والده كان يستخدم لغة دنسة وبذيئة مع أمه في تلك الأوقات.»

من ضمن الشهود أيضًا شاهدةٌ جاءت من شيكاغو، وقد شهدت بأنها لطالما رأت جدتي تخبط رأسها بالجدار في نوبات من المعاناة الذهنيّة. وضابط شرطة من كينوشا روى بأنه «في إحدى المرّات رأى السيّدة أوستر تركض دون تحفّظ في الشّارع. أكّد بأن شعرها كان منكوشًا. وأضاف أنها كانت تتصرّف كامرأة قد فقدت عقلها». استدُعي طبيبٌ نفسيٌّ أيضا، وأكّد بأنها كانت تعاني من «هوس حاد» ولا تزال.

أمّا شهادة جدّتي نفسها فقد استمرّت لثلاث ساعات. «بين شهيق البكاء واللجوء إلى الدمع، روت قصّة حياتها مع السيّد أوستر حتى

وقت الحادثة. وقد وقفت السيّدة أوستر، أثناء ذلك، لامتحان الأسئلة المقاطعة لها بشكل جيّد، مُكرّرة قصّتها لأكثر من ثلاث مرّات بنفس الطريقة تقريباً.»

في المحصّلة «أطلق المحامي بيكر نداءً عاطفيًّا قويًّا دعا فيها لإطلاق سراح السيّدة أوستر. ففي خطبته التي استمرّت حوالي الساعة والنصف، أعاد رواية قصّتها بشكل بليغ. ولعدّة مرّات، دفعتها كلماته إلى النحيب، وبكت امرأة من الحضور أيضًا أكثر من مرّة أثناء ما كان المحامي يلوّن لوحة كفاح امرأة مهاجرة تسعى إلى الحفاظ على بيتها.»

فتح القاضي لهيئة المحلّفين الاختيار بين حكمين قضائيين وحسب: مذنبة، أو بريئة من الجرم. استغرق اتخاذ القرار من الهيئة ساعتين تقريبًا. وكما ذكرت نشرة الثاني عشر من أبريل «في الرابعة والنصف بعد ظهر هذا اليوم، سلّمت هيئة المحلّفين في محاكمة السيّدة آنّا أوستر حُكمها القاضي بأنها وجدت المُدّعى عليها غير مذنبة.»

قالت السيّدة أوستر بعد ظهر السبت في الرّابع عشر من أبريل، بينما كانت تصافح أفراد هيئة المحلّفين فردًا فردًا: «أنا أكثر سعادة الآن ممّا كنت عليه لسبعة عشر عامًا مضت». وقالت لأحدهم: «كنت قلقة طوال حياة هاري، لم ألتق قط بالسعادة الحقيقية، ويؤسفني أنه مات على يدي. أنا سعيدة الآن كما تمنّيت دومًا أن أكون.»

«غادرت السيّدة أوستر قاعة المحكمة بصُحبة ابنتها وطفليها الصغيرين، وقد كانوا ينتظرونها بصبر في قاعة المحكمة حتى سلّمت

هيئة المحلّفين حكمها الذي حرّر والدتهم.»

«كان ساموويل أوستر لا يزال في سجن البلدة، وبينما لم يكن بمقدوره استيعاب ما حصل، قال بأنه سيخضع لقرار المحلّفين الاثني عشر.»

وصرّح في مقابلته على برنامج صباح الأحد: «في الليلة الماضية عندما عرفت بأمر الحكم، سقطتُ على الأرض. لم يكن بمقدوري تصديق أنها ستُفلت حُرّة دون عقاب بعد قتلها أخي، زوجها. هذا كلّه كثير عليّ. لا أفهم كيف، لكنني سأدع الأمور تسير الآن. حاولت مرّة أن أُصلح الأمور بطريقتي لكنني فشلت، ولا أستطيع فعل شيئ الآن غير قبول قرار المحكمة.»

أُطلق سراحه، هو أيضًا، في اليوم التالي دون عقاب، إذ قال للمدّعي العام: «سأعود إلى عملي في المصنع كي أجمع مالًا كافيًا لرفع شاهدةٍ حجريّة على قبر أخي تكريمًا له، ثمّ سأسخّر طاقتي لمساعدة أبناء إخوتي الذين عاشوا في النمسا وماتوا مقاتلين في الجيش النمساوي.»

«كشف المؤتمر الصحفي هذا الصباح عن حقيقة أنّ ساموويل أوستر هو أصغر إخوته الخمسة. لقد قاتل ثلاثة منهم ضمن صفوف الجيش النمساوي في الحرب العالمية، وسقطوا جميعًا صرعى في أراضي القتال».

في ختام التغطية الصحفيّة الأخيرة عن القضيّة، نقلت الصحيفة هذا الخبر: «تخطّط السيّدة أوستر الآن لأخذ أطفالها والرّحيل شرقًا خلال أيّام قليلة. وقيل بأنّها قد قرّرت ذلك اتّباعًا لنصيحة محاميها الذي أقنعها بأن عليها الانتقال إلى بيت جديد كي تبدأ حياة لا يعرف فيها أحد عن قصة المحاكمة.»

أفترض أنّها نهاية سعيدة!، على الأقل لقرّاء صحف كينوشا وللمحامي البارع بيكر، ومن دون شك لجدتي. لم يُذكر أيّ شيء فيما يتعلّق بثروة العائلة، فقد انتهت أخبارها بإعلان مغادرتها الوشيكة شرقًا.

ولأن أبي نادرًا ما حدّثني عن ماضيه، فلم أعرف سوى القليل ممّا حدث بعد ذلك. ولكن من خلال الأمور القليلة التي ذكرها، كان بإمكاني تكوين فكرة لا بأس بها عن المناخ الذي نمت فيه العائلة.

عاشوا في تنقّل دائم. لم يكن غريبًا على أبي أن ينضمّ إلى مدرستين مختلفتين خلال عام دراسيّ واحد أو حتى إلى ثلاث مدارس. ولأنهم لا يملكون المال الكافي، فإن حياتهم صارت سلسلة فرارات من الملّاك والدائنين. وعلى الرغم من أنّ العائلة مُغلقة على نفسها سلفًا، فإنّ حياة الترحّل تلك قد سوّرتها بعزلة خالصة. ليس من أماكن ثابتة للعودة إليها: لا بيت، ولا بلدة، ولا أصدقاء يمكن الاعتبار بهم. العائلة مفردة، كأنها تعيش في كرنْتينا، في محْجر إلزامي.

أبي هو أصغر إخوته، واستمرّ طوال حياته مُكْبرًا لهم. عُرف في طفولته بإسم سوني. كابد من الرّبو والحساسيّة، واجتهد في دراسته ولعب في المباراة النهائية لفريق الكرة المدرسي، وركض مسافة ال٤٤٠ لصالح فريق المسار في سينترال هاي من مدينة نيوارك. تخرّج أثناء السنة الأولى من الكساد الكبير، وداوم في كليّة القانون ليلًا لمدّة فصل أو فصلين، ثم ترك الدراسة كما فعل إخوته من قبله تمامًا.

تمسّك الإخوة الأربعة ببعضهم. هناك ما يشبه ولاء القرون الوسطى بينهم. وعلى الرغم من امتلاكهم لما يختلفون به عن بعضهم وفي أكثر من

جانب، حتى لكأنّهم لا يشبهون بعضهم، فإنني لم أستطع التفكير بهم كأربعة أشخاص منفصلين ومختلفين، بل كعشيرة؛ صورة رباعيّة من التضافر. شَبّ ثلاثة منهم كشركاء عمل، وعاشوا في نفس البلدة. أمّا الرّابع، وهو أكبرهم، فقد عاش على بعد بلدتين منهم، وجُعل مسؤولًا عن أحد الأعمال التي يملكها الثلاثة الآخرون. وقد كان يومًا نادرًا كلّ الندرة ذاك الذي لم يلتق فيه أبي بإخوته. واستمرّ هذا الحال حتى نهاية حياته: كل يوم، لأكثر من ستين سنة.

التقطوا عاداتهم من بعضهم البعض؛ الاستعارات الأدبيّة واللفتات البسيطة. متمازجون إلى درجة يستحيل معها معرفة أيّهم كان المصدر لسلوك معيّن أو لفكرة ما. لم تتزحزح مشاعر أبي نحو إخوته قط، ولم يتكلّم بسوء عنهم على الإطلاق. مرّةً أخرى، إنه الآخر كائنًا بمن هو، لا بما يحقّقه. ولو حدث أن استصغره أحد إخوته أو قام بفعلٍ مُستهجنٍ أمامه، فسيرفض إطلاق أيّ حكم عليه قائلًا «إنّه أخي»، وكأنّ ذلك يفسّر كل شيء. الأخوّة هي المبدأ الأوّل، هي المسلّمة التي لا جدال فيها، هي السّورة الواحدة والوحيدة للإيمان؛ كالاعتقاد بالله، التساؤل حوله هرطقة.

ولكونه الصّبي الأصغر، وعلى الرغم من أنه كان الأكثر وفاءً للأسرة من بين إخوته جميعًا، فإنه لم يتلقَّ منهم الاحترام الكافي الذي يليق بأفعاله. لقد تولّى أصعب أعمالهم، وكان الأكثر سخاءً على أبناء أخته وإخوته وبناتهم. ولكن هذا كلّه لم يكُن مُلاحظًا بشكلٍ لائق ولم ينل سوى القليل من التقدير. تتذكّر أمي أنه في يوم زفافها، في الحفل الذي تلا مراسم العرس، قام أحد أشقّائه بمراودتها عن نفسها. التعذّر

بالطّيش لتبرير ذلك هو أمرٌ لا أناقشه هنا، فما أريد قوله هو أن الواقع الصّرف لمضايقتها بذاك الشّكل يُعطي فكرةً مقرّبة عن مقدار الاحترام الذي يُكنّه أعمامي لأبي وأمّي. لا يمكن لرجل أبدًا القيام بأمر كهذا في يوم زفاف رجل آخر، حتى لو كان ذك الرجل هو شقيقه.

جدّتي تتوسّط العشيرة، إنّها ماما يوكوم اليهودية؛ أمٌّ تقف عندها كل الأمهات. ضاريةٌ وعنيدة، إنها الزعيمة. وقد كان من المعروف أنّ إخلاص أبنائها لها هو ما جعلهم مقرّبين من بعضهم إلى ذاك الحد. فقد استمرّوا بوفاءٍ حتى بعد زواجهم وإنجابهم للأولاد في طَرق باب منزلها كل ليلة جمعة للعشاء من دون أسرهم. كانت هذه هي العلاقة ذات الأهميّة، ولها الغَلَبة على ما عداها. وعلى الرغم من ذلك، فإنّها صورةٌ هزليّة إلى حدّ ما: أربعة رجال ضخام، يرتفع الواحد منهم لأكثر من ستة أقدام، يخضعون لأوامر امرأة مسنّة، أقصر منهم بعدّة أقدام.

في إحدى المرّات القليلة التي قدموا فيها للعشاء برفقة زوجاتهم، حدث وأن قام أحد الجيران بزيارة البيت فجأة، وانبهر من وجود هذ التجمّع العائلي العامر. سألها: «هل هذه هي عائلتك، سيّدة أوستر؟». فأجابت بابتسامة اعتزاز واسعة: «نعم، هذا ــــ، وهذاــــ، وهذاــــ، وهذا سام». تراجع الجارُ قليلًا من الدهشة، ثمّ سألها: «والسيّدات الجميلات، من هن؟»، فأجابت بتلويحة عفويّة من يدها: «أوه، تلك زوجةــــ، وتلك زوجةــــ، وتلك زوجةــــ، وتلك زوجة سام».

لم تكن الصورة التي رُسمت لها في صحيفة كينوشا دقيقة على

الإطلاق، إذ ورد فيها أنّها نذرت نفسها لأطفالها، وورد أيضًا قول المحامي بيكر «أين يمكن لامرأة برفقة خمسة أطفال أن تذهب؟ إنها متشبّثة بهم، وتستطيع المحكمة أن ترى أنهم أيضًا متشبّثون بها». لقد كانت مستبدّة؛ تدخُل في نوبات من الصراخ والهستيريا، وتهوي على رؤوس أبنائها بالمكنسة عندما تغضب. كانت تطلب الطاعة الكاملة، وقد حصلت عليها.

مرّة، جمع أبي في صغره مبلغًا ضخمًا (عشرة دولارات أو عشرين على الأكثر) من وراء توزيعه للصّحف كي يشتري لنفسه درّاجة جديدة. وبغتة اقتحمت أمه غرفته وكسرت حصّالته التي على شكل خنزير، وأخذت منها النقود دون إذنٍ منه ولم تقدّم أيّ اعتذار. احتاجت المال لدفع بعض الفواتير، ولم يكن لأبي أيّ ملاذ، فلا أحد حوله ليبثّ إليه شكواه. وحينما روى لي هذه القصة، لم يكن يقصد أن يريني كيف أن أمّه قد ظلمته، ولكن ليبيّن لي أن مصلحة العائلة هي دائمًا فوق المصالح الذاتيّة لأفرادها. ربما استاءَ وقتها، ولكنه لم يتذمّر.

كان التعلّل بمصلحة العائلة عذرًا نابعًا من هواه، إذ أنّ ما حدث، بالنسبة لطفل، يعني أن السماء قد تهوي على رأسه في أيّة لحظة، يعني أنه لن يستطيع أن يثق بأيّ أحد بعدها. وهكذا تعلّم أبي ألّا يثق بأحد أبدًا منذ صغره، ولا حتى بنفسه، إذ سيظهر أحد دومًا ليُثبت له أنه قد وضع ثقته في المكان الخطأ، وبالتالي لا يمكن التعويل عليه للقيام بأيّ أمر. تعلّم ألّا يرغب في أيّ شيء بشدّة.

عاش مع أمّه حتى بلغ سنّا أكبر ممّا أنا فيه الآن. إنه آخر من ينصرف خارجًا من بيت أمه معتمدًا على نفسه، فقد تركه إخوته خلفهم ليعتني بأمهم. ومع ذلك، فإنه من الخطأ القول بأنه كان ابن أمّه، فقد كان مستقلًّا تمامًا إذ لقّنه إخوته جيّدًا أساليب الرجولة. كان طيّبًا معها، بارًّا بها ومُلبيًا لرغباتها. ولكن لم يخلُ الأمر مع ذلك من وجود مسافة معيّنة بينهما، حتى في الدعابة. هاتفَته كثيرًا بعد زواجه وخروجه من البيت، تشكو له من هذا وذاك، ولا يكون منه سوى أن يُدني سمّاعة الهاتف من الطاولة ويتركها هناك، ثم يتمشّى لعدّة دقائق ويعود إلى الهاتف، يرفع السماعة، ويقول شيئًا لا معنى له كي تفهم أنه لا يزال معها (أها، أوه، أهاا، إممممم، هذا صحيح)، ثم يتجوّل مرّة أخرى إلى أن تُفضي بكلّ ما في نفسها من كلام.

إنّه الجانب الكاريكاتوري من انغلاقه على نفسه، وقد خدمه جيّدًا في مواقف كثيرة.

أتذكّرها: مخلوقة ضئيلة ومتغضّنة، تجلس في الرّدهة الأمامية لمنزل تقطنه عائلتان في ويكوايهك من مدينة نيوارك، تقرأ صحيفة الأمام اليهوديّة اليوميّة. وبالرغم من معرفتي بأنّ عليّ أن أقبّلها متى ما رأيتها، فإنّ فكرة تقبيلها لا تزال تجعلني أنكمش. كان وجهها كثير التجاعيد، وبشرتها ناعمة بشكل غير بشريّ. والأسوأ من ذلك رائحتها. استطعتُ تمييز رائحتها لاحقًا بالصّدفة إذ عرفت أنها رائحة الكافور. فقد كانت بالتأكيد تضعه في أدراج منضدتها. وبمرور السنوات، تسرّبت الرائحة إلى خيوط ملابسها. هذا الشذى لم يكن ينفصل في مخيّلتي عن صورة

«الجدّة».

وإلى أبعد ما يمكنني تذكره، لم يكن لها أيّ اهتمام ظاهريّ بي. أعطتني هديّة واحدة وحسب، وقد كانت كتابًا اقتناه طفلان قبلي أو ثلاثة. إنّه سيرة ذاتيّة لبينجامين فرانكلين. أتذكّر قراءتي له كاملًا حتى أنني أستطيع استدعاء بعض المعلومات منه. فمثلًا، ضحكت زوجة فرانكلين المستقبليّة منه في المرة الأولى التي التقته فيها، إذ كان يتجوّل في شوارع فيلاديلفيا متأبّطًا قطعة رغيف كبيرة. كان للكتاب غلاف أزرق رُسمت عليه مصوّرات ظلّيّة. من المؤكد أنني كنت في السابعة من عمري وقتها أو الثامنة.

بعد موت أبي، اكتشفت وجود صندوق يعود إليها في قبو المنزل. ولأنه كان مُقفلًا، قرّرت أن أفتحه بالقوة، بمطرقة ومفك براغ، ظانًّا أنه ينطوي على سرّ دفين، على كنز ضائع لزمن طويل. وبسقوط المغلاق ورفعي المزلاج، وجدت هناك مرّة أخرى تلك الرائحة مُندفعةً نحوي، مُباشِرة ومحسوسة، لكأنّ جدتي نفسها كانت تستلقي هناك. شعرت أنني للتّو قد فتحت تابوتها.

لم أعثر فيه على شيء مهم: هناك مجموعة من سكاكين الحفر والنقش، وكومة من المجوهرات المزيّفة، وغلاف بلاستيكي صلب لكتاب الجيب، وصندوق ثُمانيّ الأضلاع ذي ذراع مثبّتة. أعطيتُ هذا الأخير لدانيال، وبدأ رأسًا باستخدامه على شكل مرآب متحرّك لأسطول السيارات والشاحنات الصغيرة التي عنده.

اشتغل والدي بشقاء طوال حياته. حصل على وظيفته الأولى في التاسعة من عمره، و أدار في الثامنة عشرة عملًا لتصليح أجهزة الراديو مع أحد أشقّائه. وباستثناء فترة قصيرة عُيّن فيها كمساعد في معمل توماس إيديسون (سُحبت منه الوظيفة في اليوم التالي لمعرفة إيديسون بأنه يهودي) لم يشتغل والدي لصالح أحدٍ غير نفسه. كان رئيسًا مُرهِقًا جدًا، كان أكثر تطلّبًا في العمل من أيّ أحد آخر.

انتهى محلّ أجهزة الراديو ليصير متجرًا صغيرًا للآلات المنزليّة. والذي بدوره تحوّل إلى دكّان واسع للمفروشات. ومن هنا، وبشكل موازٍ، بدأ بالاستثمار في العقارات (ابتاع منزلًا لأمه كي تسكن فيه). قام تدريجيًّا بتركيز طاقته في أمور العقار إلى أن صار مجالًا تجاريًا قائمًا بذاته، وترك ما عداه. شراكته في العمل مع اثنين من إخوته استمرّت من استثمار إلى آخر.

مبكّرًا في الاستيقاظ صباحًا، متأخّرًا عن المنزل ليلًا، وبينهما العمل، لا شيء سوى العمل. العمل هو اسم البلدة التي عاش فيها، وكان واحدًا من وطنيّيها العظماء. أقول ذلك كي أتفادى القول بأن العمل، مع ذلك، كان متعة له. لقد عمل جاهدًا لأنه أراد الحصول على أكبر قدر متاح من المال. العمل هو وسيلة تنتهي بشيء؛ وسيلةٌ إلى المال. ولكن حتى تلك النهاية لم تكن تهبه المتعة. فكما كتب الشّاب ماركس: «إذا كان المال هو ما يربطني بالحياة الإنسانية، ويربط المجتمع بي، أي يربطني أنا والطبيعة والبشر ، أليس هو إذًا رابط الروابط؟ هل يستطيع ألّا يذوب وأن يبقى قابضًا على كلّ الروابط؟ أليس هو، بالتالي، العميل الكونيّ

للتفرقة؟».

لقد حلم طوال حياته بأن يصبح مليونيرًا، بأن يصير أغنى رجل في العالم. لم يكن المال نفسه ما أراد، ولكن ما يمثّله: ليست المباهاة بحياة ناجحة أمام أعين الملأ وحسب، بل ليجعل من نفسه أيضًا غير ملموس. امتلاك المال يعني أكثر من القدرة على شراء الأشياء: يعني أنّه لن يكون بمقدور العالم أن يُملي عليك ما تحتاجه. المال، إذًا، بمعنى الحماية، لا المتعة. وكونه قد عاش مُعتازًا المال في طفولته، ولذا كان هشًّا أمام نزوات العالم وعاجزًا عنها، صارت فكرة الثراء تعادل عنده فكرة الهرب: الهرب من الأذى، ومن المعاناة، من أن يكون ضحيّة. لم يكن يحاول شراء السعادة، ولكنه كان ببساطة يحاول شراء غياب التعاسة. المال هو الترياق، إنه تجسيد لرغباته العميقة والمتعذرة عن الوصف كآدمي. لم يكن يريد أن يصرفه، بل أن يمتلكه، أن يطمئن إلى أنه هناك. هكذا إذًا، المال ليس بوصفه إكسيرًا، بل ترياق سم: قنّينة صغيرة من الدواء تحملها في جيبك عندما تخرج ذاهبًا إلى الغابة، تحسُّبًا للدغة أفعى سامّة.

تمرّ أوقات يصير فيها إحجامه عن صرف المال جسيمًا، ويتبدّا كأنه مرض. لم يتطوّر الأمر إلى أن يُنكر على نفسه ما تحتاجه (حاجاته كانت قليلة) ولكن كلّما توجّب عليه أن يبتاع شيئًا، راح يختار بحذق أرخص الموجود. التسوّق بالمساومة هو أسلوب حياته.

التحلّي بهذا السلوك هو شكل من أشكال الإدراك الحسّي البدائي وغير المتطوّر. إذ تنمحي الفروقات بين الأشياء وينخفض كل شيء

إلى القاسم المشترك الأصغر وتنعدم المفاضلة؛ اللّحم لحم، والأحذية أحذية، والقلم قلم؛ ليس من المهم، مثلًا، أن تقدر على اختيار شرائحَ لحم بقريّة من الكتف أو من الساق على وجه التحديد.. ليس من المهم أن تختار بين أقلام ذات رؤوس دائريّة تُستعمل لمرّة واحدة ثمنها ٣٩ سنتا وأقلام حبر بخمسين دولارًا بإمكانها أن تدوم عشرين عامًا. مصير الأشياء الفاخرة هو المقت ولا شيء آخر: إنها تعني أن عليك أن تدفع ثمنًا مُفرطًا، ممّا يجعل الأمر فاسدًا أخلاقيًّا. وبمستوى أعم، قام بترجمة هذا السلوك لتصير عنده حالة دائمة من الشعور بالعوز: فعن طريق إغلاق عينيه بقوّة، راح يدرأ عن نفسه أيّة صلة حميمة بأشكال العالم وأنسجته، وبتَر نفسه تمامًا عن أيّ احتمال لاختبار المتعة الجماليّة. العالم الذي أطلّ عليه كان حيّزًا عمليًّا. كل شيء فيه له قيمة وثمن، والفكرة هي أن تحصل على الأشياء التي تحتاجها بأقلّ ثمن ممكن. يتمّ استيعاب كل شيء وفقًا لوظيفته فقط، ويُقدّر بتكلفته وحسب، لا كشيء ذو جوهر ويحمل خصائصه التي تميّزه. وبكلمات أخرى، خُيّل إليّ أن العالم يبدو له كبُقعةٍ باهتة؛ ألبسةٌ متشابهة دون ألوان ولا عمق. فإذا نظرت إلى العالم عبر المال وحسب، فأنت في المحصلة لا ترا منه شيئًا.

عشت بسببه في صغري مواقف كثيرة من الإحراج المرير أمام الناس؛ كان يُساوم الباعة ويغتاظ من الأسعار المرتفعة، ويجادل كأنّ رجولته نفسها على المحك. أتذكّر جَليًّا كيف كان كل شيء يذوي في داخلي، وكيف كنت أتمنّى أن أكون في أيّ مكان من العالم عدا الذي كنت فيه. يبزغ في ذاكرتي الآن موقفٌ واحد: ذهبت معه لشراء قفّازات بيسبول.

أمضيت قبلها أسبوعين من الذهاب اليوميّ إلى المتجر بعد المدرسة، حيث أقف وأزيدُ من استحساني للقفّازات. وفي مساءٍ ما، أخذني أبي إلى المتجر لشرائها، واجتاحني الذّعر عندما انفجر غاضبًا في وجه البائع حتى خفت أن يقطّعه إربًا؛ كان مرتعبًا من ثمن القفّازات وموجوع الفؤاد. قلت له بألّا يقلق، قلت له بأنني لم أكن أصلًا في حاجة إلى القفّازات، وطلبت منه أن نخرج من المحل. وبينما كنا نغادر، دعاني إلى تناول كوز من الآيسكريم، وقال: «تلك القفّازات لم تكن جيّدةً على أيّة حال، سأشتري لك قفّازات أفضل منها فيما بعد».

أفضل، بالطبع، يعني أرخص.

يُقرّعنا طويلًا لتركنا أضواءً كثيرة مشتعلة في المنزل. ودائمًا ما يُشير إلى أنه يشتري مصابيح تعمل بكهرباء ضعيفة بسبب ذلك.

عُذره لعدم أخذنا إلى السينما: «لماذا نخرج لبذل ثروة على أفلام سوف تُعرض على التلفزيون خلال عام أو عامين؟»

الوجبات العائلية المتباعدة في المطاعم؛ علينا دومًا أن نطلب أرخص الأطباق من قائمة الطعام، حتى صار ذلك أشبه بالشّعيرة؛ يومئ برأسه موافقًا: «نعم، هذا خيار جيّد».

بعد سنوات، عندما كنت وزوجتي نعيش في نيويورك، دعانا غير مرّة لتناول العشاء في الخارج. يتكرّر نفس السيناريو في كلّ مرّة وبدقّة؛ ففي اللحظة التي تتلو وضعنا لآخر شوكة من الطعام في أفواهنا، يسألنا

فورًا: «هل أنتم مستعدون للمغادرة؟». هكذا يصيرُ من المستحيل أن نتناول أيّ شيءٍ آخر كالحلوى مثلًا.

انزعاجه المطلق حتى من بشرته نفسها. عدم قدرته على البقاء ساكنًا، أو على الاستمرار في حديث قصير، أو حتى الاسترخاء وحسب.

وجودك برفقته يجعلك عصبيًّا. تشعر وكأنّه على أُهبة مغادرتك في أيّة لحظة.

لطالما أحبّ الخُدَع الذكيّة والبسيطة. تَراهُ مزهوًّا بنفسه إذ يستطيع بدهائه فقط أن يتفوّق على الحياة في لعبتها وبشروطها. ولهذا كان بخيلًا في أكثر جوانب الحياة بساطة. يبدو الأمر سخيفًا ومُحبطًا. فمع سيّاراته مثلًا، سيقوم بفصل عدّاد المسافات لكي يُحرّف الأميال المقطوعة ويضمن لنفسه سعرًا تجاريًّا أفضل عند بيعها. وسيسعى في منزله إلى القيام بكل التصليحات بنفسه دون أن يستعين بأيّ خبير أو متخصّص. ولأنّه يتمتّع بموهبة في تفكيك الآلات ولديه معرفة بكيفيّة عملها، يقوم بتطبيق حلولٍ مختصرة وغريبة مُستخدمًا موجودات المنزل التي في متناول يده، مُتّبعًا دَليل روبي غولدبرغ للمشاكل الميكانيكية والكهربائية. لن يصرف المال للقيام بذلك بشكل صحيح.

لم تعنِ له الحلول الدائمة شيئًا قط. استمرّ في الترقيع تلو الترقيع؛ قطعةٌ صغيرة هنا، وقطعةٌ صغيرة هناك.. لن يسمح لقاربه بأن يغرق، ولكنه في نفس الوقت لن يعطيه فرصة لأن يطفو بكامله أبدًا.

مزاجه في اللباس: كأنه متأخّر عن الزّمن عشرين عامًا. يرتدي بذلات رخيصة الصّنع يبتاعها من رفوف المتاجر المخفّضة. ينتعل زوج أحذية حصل عليها دون عُلبة من سِلال بسطات المساومة. وبعيدًا عن تقديم أدلّة على بؤسه، فإن هذا التغافل عن أبسط أشكال الأناقة قد عزّز صورته كرجل لم يكن تماما في العالم. إن الملابس التي ارتداها كانت أشبه بتعبيرٍ عن العزلة، كانت شيئًا ملموسًا يؤكّد غيابه. وعلى الرغم من أنه كان ميسور الحال وبمستطاعه الحصول على أيّ شيء أراده، فإنّه بدا وكأنه رجل فقير، كأنه رجلٌ بلديٌّ يخطو للتو خارجًا من المزرعة.

تغيّر لباسه على نحو طفيف في السنوات الأخيرة من حياته. ربما أدرك أن العودة إلى حياة العازب مرة أخرى تتطلّب منه أن يكون مقبول المظهر لكي يحضى بحياة اجتماعيّة من أيّ نوع. وما كان أنه خرج وابتاع ملابس ثمينة، ولكنه غيّر بعض الشيء الجوّ الذي كانت عليه خزانته: فالبنّي والرّمادي المملّان قد نُبذا لأجل ألوان أزهى. لقد ترَكَ الطّراز الذي عفى عليه الزمن لأجل مظهر أكثر إبهاجا وأناقة: بنطلونات مخطّطة، وأحذية بيضاء، وكنزات صفراء، وأحذية تُزيّنها أبازيم كبيرة. ولكن على الرغم من كلّ هذه الجهود، فإنه لم يبدُ عليه قط أنّه مرتاح داخل هذه الثياب وكأنّه في بيته، لقد استعصت على أن تكون جزءً مكمّلًا لشخصيّته، وكأنّك تحدّق في طفلٍ قد ألبسه والداه ثيابه عنوة.

ومع الأخذ بالاعتباز علاقته غريبة الأطوار بالمال (شغفه بالثّراء،

وعجزه عن الصّرف)، فقد كان مناسبًا له أن يعيش بين الفقراء. فقد كان، مُقارنةً بهم، رجلًا فاحش الثراء. لذلك، عبر قضاء أيّامه بين أناس امتلكوا اللاشيء، يستطيع أن يُبقي نصب عينيه الأمر الأكثر رعبًا في العالم بالنسبة له: الفقر. ذاك ما يضع الأشياء في أماكنها بالنسبة له. لم يكن يعتبر نفسه بخيلًا، ولكن متعقّلًا؛ رجلًا يدرك قيمة الدولار. كان عليه أن يبقى متيقّظًا على الدوام، فيقظته هي الأمر الوحيد الذي وقف بينه وبين كابوس الإفلاس.

عندما كانت تجارته في ذروتها، امتلك وإخوته حوالي المئة بناية. تقع أراضيها في المنطقة الصناعية الكالحة شمال ولاية نيوجيرسي، في مدينتي جيرسي ونيوارك. وكان جميع المستأجرين تقريبًا من السّود. قد يُقال عنه إنّه أحدُ مُلّاك الأحياء الفقيرة، ولكن لن يكون ذلك توصيفًا دقيقًا أو عادلًا. فلم يكن على أيّة حال غائبًا عمّا يملكه. لقد كان هناك، مستنزِفًا وقته وجهده بطريقة قد تدفع حتى أكثر موظف يقظ الضّمير إلى الخروج عن طوره.

كانت مهام عمله أشبه بألعاب الخفّة؛ هناك بيع المباني وشراءها، وتصليح الآلات وشراءها، وإدارة جماعات واسعة من رجال الترميم، وتأجير الشقق، والإشراف على المراقبين، والاستماع إلى شكاوى المستأجرين، والتعامل مع زيارات مفتّشي المباني، والتعاطي الدائم مع شركات الماء والكهرباء. ولا داعي للحديث عن الزيارات المتكررة للمحكمة كمُشتكٍ حينًا وكمُدّعى عليه حينًا أخر فيما يتعلّق بقضايا الإيجارات المتأخّرة والرّد على الانتهاكات. كانت المشاغل تهجم عليه دفعة واحدة؛ انقضاضات مستمرّة من دزّينة جهات في نفس الوقت،

ووحده الرّجل الذي يؤدّي أعماله بنفسه من يستطيع أن يتعامل مع وضع كهذا. كان من المستحيل في أيّ يوم من الأيام إنجاز كل ما يتوجب إنجازه في ذلك اليوم. أنت لا تعود إلى المنزل لأنك انتهيت من العمل، بل ببساطة لأن الوقت قد تأخّر ولم تعد تملك المزيد منه. تنتظرك المشاكل المتبقيّة كلها في اليوم التالي، وإلى جانبها أخرى جديدة أيضًا. لم يتوقف العمل قط. وخلال خمسة عشر عامًا، لم يأخذ سوى إجازتين وحسب.

كان رقيق القلب مع المستأجرين؛ يسمح لهم بتأجيل دفع الإيجار، ويهب الملابس إلى أطفالهم، ويُعينهم على إيجاد أعمال يسترزقون من ورائها. لقد وثقوا به. فخوفًا من السّطو، يُعطيه الرّجال المسنّون أغلى ممتلكاتهم كي يحفظها لهم في خزينة مكتبه. ومن بين كل أشقائه، هو الوحيد الذي يقصده الناس بمشاكلهم. لم يدْعُه أحدٌ بالسيّد أوستر، بل كان دائمًا السيّد سام.

بينما كنت أنظّف المنزل بعد وفاته، وقعت صدفة على هذه الرسالة في قعر درج من أدراج المطبخ. وجدت نفسي أكثر سعادة لعثوري على هذه الورقة من بين كل الأشياء التي عثرت عليها في المنزل. إنها بطريقة ما تُوازن دفتر الحساب، لقد وفّرَت لي بُرهانًا حيًّا أنظر إليه في كلّ لحظة يبدأ فيها عقلي بالانحراف بعيدًا عن الوقائع والحكم على أبي بإجحاف. الرسالة مرسلة إلى السيّد سام، ولم يكن خطّ اليد قابلًا للقراءة بسهولة.

التاسع عشر من أبريل، سنة ١٩٧٦

العزيز سام،

أعرف أنّك متفاجئ لسماع أخباري. من الأفضل أن أقدّم لك نفسي قبل كل شيء. أنا السيّدة ناش. شقيقة زوجة السيّد آلبرت غروفر، كانت السيّدة غروفر وآلبرت يسكنان في ٢٨٥ شارع باين في مدينة جيرسي منذ زمن بعيد. والسيّدة بانكس شقيقتي أيضًا.. لو كنت تذكر على أيّة حال.

لقد رتّبتَ أمر حصولي وأطفالي على شقة في ٣٢٧ جادة جونستن، على بُعد زاوية فقط من السيّدة غروفر، شقيقتي.

مهما يكن، لقد غادرتُ وأنا مَدينةٌ لك بإيجارٍ بلغ الأربعين دولارًا. كان ذلك قبل إثني عشر عامًا في ١٩٦٤. ولكنني لم أنس أنني مدينة لك بهذا المبلغ. والآن، هو ذا مالُك. شكرًا للُطفك البالغ معي ومع أبنائي في ذلك الوقت. هكذا أُقدّر بشدّة ما فعلته لنا. أتمنّى أن تستطيع استدعاء ذاك الزمن، فأنت لم تغب قط عنّي.

هاتفتُ مكتبك قبل ثلاثة أسابيع تقريباً، ولكنك لم تكن هناك. عسى أن يباركك الله دومًا. نادرًا ما آتي إلى مدينة جيرسي، ولكن إن حدث وأتيت، فسأتوقّف حتمًا لتحيّتك.

حسنًا، أنا فرحة لتسديدي هذا الدّين. هذا كل شيء الآن.

بكلّ إخلاص،

السيّدة ج ب. ناش.

رافقته أكثر من مرّة في جولاته لتحصيل الإيجارات. كنت طفلًا ولم أكن أفهم ما كنت أراه. ولكن تلك الجولات قد تركت فيّ انطباعًا لا أزال أذكره، وكأنّ عدم استيعابي لما رأيته قد جعل تلك الصور الخام تترسّب مباشرةً داخلي، وقد لبثت هناك إلى اليوم، حادّة كشوكة تحت ظفر الإبهام.

دخلت مبان خشبيّة ذات مداخل مُعتمة وغير مضيافة. وخلف أبواب الشقق يحتشد أطفالٌ يلعبون في مساحة ضيّقة جدًا؛ الأمّ متجهّمة دومًا ومتقوّسة أبدًا على طاولة الكي ومُنهكة. رائحتهم هي الأشد وضوحًا، لكأنّ الفقر أمرٌ يعدو غياب المال، لكأنّه إحساسٌ مُتجسّد، نتانة تغزو الرأس وتجعل من مجرّد التفكير أمرًا مستحيلا. ما إن أدخل أحد تلك المباني برفقة والدي حتى أحبس أنفاسي ولا أقوى على استردادها، وكأن تلك الرائحة ستؤذيني. كان كلّ واحد من السكّان سعيدًا دومًا لمقابلة إبن السيّد سام. لقد مُنحْتُ ابتسامات وربتات على رأسي لا تعدّ ولا تحصى.

وأتذكّر أنني كنت برفقته، وقد كبُرتُ قليلًا، وهو يقود سيّارته في شوارع مدينة جيرسي. رأيتُ طفلًا يرتدي قميصًا كبُرتُ على ارتدائه قبل بضعة أشهر. لقد كان قميصًا مميّزًا ذا مزيج غير مألوف من خطوط صفراء وزرقاء، ولم يكن هناك من شكّ في أنه هو نفسه الذي كان لي. ودون تبرير، غمرني شعور بالخزي.

لا زلت أكبر قليلًا، في الثالثة عشرة من عمري أو الرابعة عشرة، أو

حتى الخامسة عشرة. أرافقه إلى مكتبه من حين إلى آخر كي أجني بعض المال بمساعدة النجّارين والصبّاغين ورجال تصليح الأعطال. ومرّة، في يوم من أيام منتصف الصيف التي لا تطاق لشدّة حرارتها، أُسْندت إليّ مهمّة مساعدة عامل على مسْح سطح إحدى البنايات بالقطران. كان اسمه جو ليفين (رجل أسود، قام بتبديل اسمه إلى ليفين امتنانًا لبقّال يهوديّ مُسِن أنقذه في شبابه)، وكان أكثر عامل يعتمد عليه أبي ويثق به. جذَبْنا معًا أكثر من خمسين غالونًا من براميل القطران إلى السّطح، وشرعنا في سكبها أرضًا وتوزيعها بالمكانس. كانت أشعّة الشّمس المنهمرة على السّطح الأملس الأسود غاشمة، وبعد نصف ساعة أو حواليها دارَ رأسي، وكانت قدمي على لطْخة رطبة من القطران فانزلقت، وهويتُ أرضًا. وبطريقة ما، ركلتُ إحدى براميل القطران المفتوحة، فانسكب ما بها عليّ بالكامل.

عُدت إلى مكتب أبي بعد دقائق معدودة، وبمجرّد رؤيتي، أصابه من السّرور شيء عظيم. أدركتُ أن الوضْع مُسلٍّ حقًّا، ولكنني كنت مُحرجًا للغاية من التندّر عليه. وممّا يُحسَب لأبي أنه لم يغضب مني أو يجعلني أضحوكة. لقد ضحك، ولكن بطريقة جعلتني أضحك أنا أيضًا. ثم ألقى جانبًا ما كان بيده وأخذني. قطعنا الشارع إلى متجر وال وورث، وابتاع لي بعض الملابس الجديدة. هكذا، وعلى نحو مفاجئ، صار من الممكن أن أشعر بقُربه منّي.

وبمضيّ السنين، بدأ عمله التجاري بالتراجع. لم يكن العمل نفسه ما أخذ بالتدهور، ولكنها طبيعة العمل: ففي ذلك الوقت تحديدًا، وفي

ذلك المكان تحديدًا، لم تكن النجاة ممكنة. فالمدن كانت تكبُر، ولم يعد أحد يهتمّ بالأحياء والسّكن فيها. فما كان مرّة نشاطًا مُرضيًا بشكل كافٍ لأبي، صار بعدها كَدْحًا صرفًا، حتى أنّه كره الذهاب إلى العمل في سنوات حياته الأخيرة.

أضحى التخريب في الأحياء مشكلة جادّة، إلى درجة أن القيام بأي نوع من التصليحات صار تحطيمًا للمعنويّات. إذ فور أن تُجرى عمليات سمْكرة لمبنى ما، حتى يقتلع اللصوص المواسير. لقد كُسّرَت النوافذ وحُطّمَت الأبواب، وصارت المداخل منزوعة الأحشاء، وراحت الحرائق تشتعل دون انقطاع. وفي نفس الوقت، كان بيعها أمرًا مستحيلًا، فلم يكن أحد يريد شراء المباني. وكان الحلّ الوحيد حينها للتخلّص منها هو هجرها، وترك المدن تكبر. لقد ضاعت مبالغ ضخمة من المال بهذه الطريقة، ضاعت حيوات بأكلمها من العمل. وفي النهاية، أي بحلول وفاة أبي، لم يبق هناك سوى ستة مبان أو سبعة. تفكّكت الإمبراطورية برمّتها.

زرتُ مدينة جيرسي آخر مرة قبل عشر سنوات تقريبًا. كان للمكان منظر منطقة منكوبة، لكأنّ المغول قد سلبوها. كانت شوارع المدينة رماديّة ومقفرة، والقُمامة ترتفع في كل مكان، والمنبوذون يسيرون ذهابًا وإيابًا دون هدف. لقد نُهب مكتب أبي مرّات كثيرة إلى درجة أنه لم يبق فيه وقتها سوى بعض الطاولات المعدنيّة الرّمادية، ومقاعد معدودة، وثلاثة هواتف أو أربعة. لم تبق في المكتب حتى طابعة واحدة، ولا تمكن رؤية أيّ أثر لأيّ شيء ملوّن في المكان. ما عاد مكتبًا للعمل، بل غرفة في الجحيم. جلست أراقب البنك الواقع في الجهة الأخرى من الشارع.

لم يخرج منه أحد ولم يدخل أحد إليه. إن الكائنات الحيّة الوحيدة التي رأيتها هناك كانت كلبان ضالّان يحدودبان على العتبة.

كيف تدبّر أبي أمر انتزاع نفسه كل يوم والذهاب إلى هناك؟. لم أستطع فهم ذلك. إنها قوّة العادة ربما، أو العنادُ البحت. لم يكن الوضع كئيبًا وحسب، بل كان خطيرًا أيضًا. فقد سُلب مرّات عدّة، وقام المُعتدي في إحداها بركل رأسه.. ركَلهُ بشراسة إلى درجة أنّ سَمْع أبي قد تضرّر بشكل دائم. ففي آخر أربع سنوات من حياته أو آخر خمس سنوات، استمرّ يسمع رنينًا خافتًا ومتواصلًا في رأسه، همهمة لا تبتعد أبدًا. لا تتركه حتى في نومه. قال الأطباء أن ليس هناك ما يُمكن فعله حيالها.

وفي النهاية، لم يخرج إلى الشارع بعدها دون أن يحمل في يده اليمنى مفكّ براغ. كان عمره أكثر من خمسة وستين عاما، ولم يكن يريد أن يخوض في المزيد من الاحتمالات.

جملتان قفزتا فجأة إلى رأسي هذا الصباح، بينما كنت أعلّم دانيال كيف يطهو البيض:

«تقول المرأة بقوّة مُرعبة: والآن أريد أن أعرف، هل بالإمكان العثور على أب آخر مثله في أيّ مكان من العالم؟»

إسحاق بابل

«للأطفال مَيْلٌ دائم إمّا للانتقاص من والديهم أو للرفع من شأنهم. وبالنسبة للطفل الصالح، فإنّ والده هو أبدًا أحسن

الآباء، بعيدًا عن أيّ سبب موضوعي لهذا الحكم»

بروست

ميّزت الآن أنني كنت بالتأكيد إبنًا سيّئًا. وإذا لم أكن سيّئًا، فإنّني كنت خيبة أمل، وبؤرة ارتباك وحزن. لم يكن يعني لأبي شيئًا أنّه قد أنجب شاعرًا. ولم يكن قادرًا قط على فهم السبب الذي يدفع شابًّا حاصلًا على شهادتين من جامعة كولومبيا إلى العمل كبحّار على ناقلة نفط في خليج المكسيك لبعض الوقت، ثم يرحل بعدها إلى باريس ويقضي فيها أربع سنوات مُعتاشًا على الكفاف، بالكاد يكفي ما تجنيه يده لإطعام فمه.

لطالما صاح بي قائلًا بأنّ «رأسي في الغمام» وأنّ «أقدامي ليست على الأرض». وعلى أيّة حال، لم يبدُ أنني كنت شيئًا أساسيًّا في حياته، وكأنّ لي شكل البُخار ولا أنتمي إلى هذا العالم. فبالنسبة له، لن تكون جزءً من هذا العالم إلا عندما تقوم بعمل ما. وبحكم التعريف، العمل هو جهد لجلب المال. فإذا لم يجلب المال، فهو ليس بعمل. الكتابة، بالتالي، ليست عملًا، وخاصّة كتابة الشّعر. هي هواية في أفضل حالاتها، وأسلوب جذّاب لتمضية الوقت الفاصل بين الأمور المهمّة. لقد ظنّ أبي بأنّني أهدر مواهبي وأرفض أن أنضج.

ولكن كانت هناك بعض الأمور التي جمعتنا. لم نكن قريبين من بعضنا، ولكننا بقينا في المتناول. تجمعنا مكالمة هاتفيّة شهريّة أو شبه شهريّة، ونتزاور لثلاث مرّات في السنة أو أربع مرّات. وكلّما نشرتُ مجموعةً شعريّة، أقوم من باب البرّ بإرسال نسخة إليه. وكان دائمًا ما يهاتفني بعدها ليشكرني. وإذا حدث وكتبت مقالة لمجلّة ما، أضع جانبًا

نسخة منها وأحرص على إهدائها له في لقائنا القادم. لم تعني له قائمة نيويورك للكتب أيّ شيئ، ولكن مقاطع تعليقات القرّاء قد أدهشته. ربما اعتقَد بأنني لو كنت سمحت لليهود بنشر كتبي فإنه قد يجد فيها ما يستحق القراءة.

كتب لي مرّة، عندما كنت لا أزال أحيا في باريس، ليخبرني بأنه ذهب إلى المكتبة العامة ليقرأ بعض القصائد التي نُشرت لي في إصدار قريب لمجلة الشّعر. تخيّلته خارجًا في الصّباح الباكر متوجّهًا إلى المكتبة العامة قبل ذهابه إلى العمل. جلس إلى إحدى تلك الطاولات الممتدة في غرفة واسعة وخالية من الناس، ومعطفه الثقيل لا يزال عليه، ينحني لقراءة كلمات لابدّ وأنه استعصى عليه فهمها.

حاولت أن أبقي على هذه الصورة في ذاكرتي، إلى جانب كل الصور الأخرى التي لن ترحل.

الاضطراب: قوّة التضليل الكبيرة في التناقض. أفهم الآن أن كل فكرةٍ تلغيها الفكرة التي تليها، أنّ كل حقيقة تقدحُ حقيقةً أخرى تساويها وتعاكسها. فمن المستحيل قول أمرٍ ما دون استدراكه: أكان حسنًا ما قلته أم سيّئًا، أكان هذا أم ذاك، فكلها صحيحة. أشعر في بعض الأحيان بأنني أكتب عن ثلاثة رجال أو أربعة، كل واحد منهم مميّز، وكل واحد يناقض الآخرين جميعًا. شظايا. أو الفُكاهة كشكل للمعرفة.

نعم.

ومضات الكرم المتفرّقة. في تلك الأوقات النادرة التي لم يكن فيها العالم يشكّل تهديدًا له، يبدو العَطفُ وكأنّه وازعه للحياة. «عسى الرّبّ الطيّب أن يبارككم إلى الأبد».

يهاتفه أصدقاؤه متى ما وقعوا في مشكلة. إذا علقت سيّارة أحدهم مثلًا في مكان بعيد عند منتصف الليل. سيجرّ أبي نفسه خارجًا من فراشه كي يذهب للإنقاذ. كان من السهل على الآخرين أن يستغلّوه. لكنه رفض أن يتشكّى من أيّ شيء.

صبره جاوز الطاقة البشرية. إنه الشخص الوحيد الذي عرفته ممّن لديهم القدرة على تعليم أحد قيادة السيّارة دون أن يغضبوا أو ينهاروا في نوبة عصبيّة. قد تميل بالسيّارة متّجهًا صوب عمود إنارة، ولن يُثيره ذلك أبدًا.

مُستغلَق، ولذلك يبدو في أغلب الأوقات شديد الهدوء.

ابتدأ الأمر عندما كان لا يزال شابًّا؛ لقد أحاطَ ابن أخته باهتمام خاص. فقد كان الولد الوحيد الذي استطاعت أخته الوحيدة إنجابه. عاشت عمّتي حياة بائسة، تخلّلتها سلسلة من زواجات صعبة. فتحمّل ابنها العبء عنها: ذهب إلى المدارس العسكريّة وانتقل للعمل في أماكن كثيرة. وأعتقد أن أبي حينها، بدافع اللّطف والإحساس بالمسؤولية، قد أخذ أمر الصّبي على عاتقه ووضعه تحت جناحه. لقد رعاه باستمرار

وكان دائمًا ما يشجّعه. علّمه كيف يمضي قُدمًا في العالم. وساعده لاحقًا في أعماله، إذ كلّما قفزت له مشكلة، كان أبي موجودًا ليستمع إليه وينصحه. وحتى بعد أن أقدم ابن عمتي على الزواج وأنجب أطفالًا وصارت له عائلة تخصّة، لم يتوقف أبي عن الاهتمام المستمرّ به، فقد استضافهم في منزله لأكثر من سنة. وبالتزام أشبه مايكون بالالتزام الديني، كان يوزّع الهدايا على أبناء أشقائه الأربعة وبناتهم في أعياد ميلادهم، ويزورهم باستمرار لتناول العشاء، وكانت أسرة ابن عمتي مشمولةً بالطبع.

ابن عمتي هذا هو أكثر من اهتزّ لوفاة أبي من بين أقربائي كلهم. ففي اجتماع العائلة بعد الجنازة، جاءني لأكثر من ثلاث مرّات كي يقول: «مررت به صدفة بالأمس، واتفقنا على تناول العشاء معًا ليلة الجمعة..»

الكلمات التي استخدمها في كلّ مرة كانت متطابقة. وكأنه لم يعد يعرف ما الذي كان يقوله. شعرت وكأننا بطريقة ما قد تبادلنا الأدوار؛ هو الابن المحزون، وأنا ابن الأخت العطوف. أردت أن ألفّ ذراعيّ حول عاتقه وأن أقول له كم كان والده رجلًا صالحًا. ففي النهاية، كان هو الابن الحقيقي، كان الابن الذي ما كان بإمكاني قط أن أكونه.

تردّد صدى هذه الأسطر لموريس بلانكوت في رأسي خلال الأسبوعين الماضيين: **«أمرٌ واحدٌ يجب أن يكون معلومًا: لم أكتب ما هو استثنائيّ أو حتى مفاجئ. إن الاستثنائيّ يبدأ في لحظة توقفي عن الكتابة. وعندئذ، لا يعود بمستطاعي كتابته»**.

أن أبدأ بالموت، أن أشقّ طريقي منه عائدًا إلى الحياة، ومن ثم، أخيرًا، أعود إلى الموت. أو بكلمات أخرى: هباء محاولة أن تروي أيّ شيء عن أيّ أحد.

جاء لزيارتي عام ١٩٧٢ في باريس، وهي المرّة الوحيدة التي سافر فيها إلى أوروبا.

كنت أعيش وقتها في غرفة صغيرة مخصّصة للخادمات تقع في الطابق السادس من أحد المباني. لم تكن تتّسع الغرفة إلا لسرير وطاولة وكرسيّ ومجلى للغسيل. تواجه النوافذ والبلكونة وجوه ملائكة حجريين، وجوه ناتئة من كنيسة القديس جيرمان أوكسيرويس؛ يقع اللوفر على يساري، وينبسط سوق ليس هالليز على يميني، أمّا هضبة مونتمارتري فتنتصب في المسافة البعيدة إلى الأمام. كنت مُغرمًا أشدّ الغرام بهذه الغرفة، وقد كتبت فيها أغلب قصائدي التي ظهرت لاحقًا في مجموعتي الشعريّة الأولى.

لم يكن أبي يخطّط للبقاء لأيّ فترة تُذكر من الزّمن، إذ يصعب القول بأنه كان في إجازة: أربعة أيام في لندن، وثلاثة في باريس، ثمّ العودة إلى الوطن. ولكنني كنت ممتنًّا لفكرة لقائه وقد أعددْت نفسي لكي نمضي معًا وقتًا طيّبًا. لكن حدث أمران جعلا ممّا نويته مستحيلًا. أصبحت مريضًا، طريح الانفلونزا؛ وكان عليّ السّفر إلى المكسيك في اليوم التالي لوصوله كي أعمل كاتبًا مُتخفيًّا في مشروع سينمائي.

انتظرته الصّباح كلّه في ردهة فندق السوّاح الذي سيبيت فيه، أتعرّق

من الحمّى المرتفعة، وأكاد أهذي من الضعف. وعندما لم يظهر في الوقت المتفق عليه، جلست هناك لساعة أخرى أو لساعتين، لكنني استسلمت في النهاية وعدت إلى غرفتي حيث هويت على الفراش.

جاء بحلول آخر النهار وطرق بابي، أيقظني من نوم عميق. كأنّ اللقاء مقتبسٌ من إحدى روايات دوستويفسكي؛ أبٌ برجوازيّ يأتي لزيارة ابنه في بلد غريب، فيجد شاعرًا مكافحًا ووحيدًا في عليّة، والحمّى تشعّ منه. ما رآه قد صدمه وأثار غضبه، إذ كيف يمكن لأحد أن يسكن غرفة كهذه، مما دفعه إلى التصرّف: لقد جعلني أرتدي معطفي وسحبني إلى عيادة مجاورة، ثم اشترى الكبسولات الموصوفة لي. ورفض لاحقًا أن يجعلني أقضي الليل في غرفتي، ولم أكن في وضع يسمح لي بالمجادلة، ولذا وافقت على المبيت عنده في الفندق.

لم أتحسّن في اليوم التالي، ولكن كانت لديّ أمور يجب الانتهاء منها. فحملت نفسي وأنجزتها. رافقني أبي صباحًا إلى شقّة واسعة على جادة هنري مارتن يسكنها منتج الأفلام الذي يريد إرسالي إلى المكسيك. لقد عملت لصالح هذا الرّجل بتقطّع خلال العام المنصرم، أقوم بمهمّات غريبة من ترجمة وتلخيص نصوص وأمور أخرى هامشيّة العلاقة بالأفلام. وعلى أيّة حال، لم تحز الأفلام على اهتمامي قط. وعلى الرغم من أنّ مشاريعه كانت حمقاء، فإن أجرها كان مجزيًا وكنت في حاجة إلى المال. لقد أرادني وقتها أنا أساعد زوجته المكسيكية على كتابة كتاب كانت قد تعاقدت على إنجازه لصالح ناشر إنجليزي: كيزالكواتل ومغامرات الثعبان ذو الرّيش. بدا لي أنه بهذا المهمة التي يريد إيكالها لي قد جاوز الحدّ قليلًا، وكنت قد خيّبته بالفعل مرّات عدّة. ولكنني

كُلّما رفضتُ له طلبًا، يقوم بزيادة الأجر؛ لقد دُفعت لي مبالغ من المال لم أملك أن أدير لها ظهري. سأسافر لشهر واحد، وقد دفع أجري كلّه نقدًا قبل السفر.

هذه هي الصّفقة التي شهدها أبي. استطعت لأوّل مرّة أن أصيبه بالدهشة. ليس فقط لأنني قُدته إلى هذا الاستعراض من البذخ والتّرف في شقة المُنتج، بل لأنني أيضًا قدّمته إلى رجل يتاجر في عمله بالملايين، وقد مدّ الرّجل بهدوء نحوي حزمة من مئات الدولارات وتمنّى لي رحلة طيّبة. المالُ بالطبع هو ما صنع الفرق، أيْ حقيقة أن أبي قد رآه بعينيه. أحسستُ بالانتصار، وكأنّني دافعت عن نفسي بطريقة ما. فللمرّة الأولى يكون أبي مُجبرًا على إدراك أنّني أستطيع الاهتمام بنفسي وفقًا لشروطي.

هكذا صار متحفّظًا جدًا في تصرّفاته معي بعد خروجنا من الشقّة. وصار شديد اللطف بشأن حالتي المرضيّة وضعفي. وساعدني وهو يبتسم ويُلقي الدعابة تلو الأخرى على إيداع المال في البنك. ثم جاء بسيارة أجرة ورافقني إلى المطار، وصافحني مصافحة كبيرة عندما توادعنا، قائلًا: «حظًّا موفّقًا يا بني، أدهشهم جميعًا حتى الموت!».

«راهن على ذلك».

وماذا بعد؟ لا شيء لعدّة أيّام.

على الرغم من الأغذار التي اختلقتها لنفسي، فإنني أفهم ما يحدث

لي الآن. إذ كلّما هممت بالانتهاء من كتابة ما أنا قابض عليه، حتى أجدني أكثر ترددًا في المضي إلى آخره. ففي مسْعاي لتأجيل لحظة النهاية، أُوهم نفسي بأنني قد بدأت للتوّ، وأنّ الجزء الأفضل من قصّتي لا يزال يستلقي في الأمام. وعلى الرغم من اللاجدوى التي قد تبدو عليها هذه الكلمات، فإنها قد حالت بيني وبين صمتٍ لا يزال يرعبني؛ فبمجرّد أن أخطو في الصمت، في تلك اللحظة، سيتلاشى أبي إلى الأبد.

مُدّت سجّادةٌ داكنة الاخضرار في المنزل. أمّا منسّق الجنازة فقد كان متملّقًا ونفعيًّا، ويعاني من الأكزيما ومن كاحلين متورّمين. لقد قرأ عليّ قائمة تكاليف الجنازة وكأنّني كنت أبتاع منه قطعًا من الأثاث بالدّين. سلّمني مغلّفًا يحوي الخاتم الذي كان يرتديه أبي عند موته. وضعتُ الخاتم في إصبعي بتراخٍ وأزلته مِرارًا بينما كانت المحادثة تأخذ في الرتابة، ولاحظت أن الجزء السّفلي من حجر الخاتم كان ملطّخًا ببقايا مزلّق صابوني. مرّت عدّة لحظات قبل أن أجد العلاقة بين الخاتم والمزلّق، فالأمر بسيط: المزلّق هو بقايا الغسول الذي أخرج به الخاتم من إصبع والدي. حاولت أن أتصوّر الشخص الذي كانت هذه الأمور من اختصاصه. لم أكن خائفًا بقدر ما كنت مفتونًا. أتذكّر أنني قلت لنفسي: لقد دخلتُ عالم الحقائق، مملكة التفاصيل الغاشمة. كان الخاتم ذهبيًّا وذو قاعدة سوداء حُفرت عليها شارة الأخوّة الماسونيّة. لم يكن أبي عضوًا نشطًا فيها لأكثر من عشرين عامًا.

استمرّ منسّق الجنازة في الادّعاء بأنه على معرفة جيّدة بوالدي «في الأيام الخوالي»، مُعطيًا انطباعًا بأنهما كانا صديقين مُقرّبين جدًا. وقد

كنت متأكدًا من أن مثل هذه العلاقة لم توجد بينهما قط. وبينما كنت أسرد له بعض المعلومات التي عليه تمريرها للصّحافة من أجل النّعي، كان يستبق ملاحظاتي بمعلومات خاطئة، وبنفس الطريقة كان يُكمل بسُرعةٍ ما كنت أقوله كي يُثبت لي بأنه كان مقرّبًا جدًا من والدي. توقّفت كثيرًا لأصحّح له. وفي اليوم التالي، عندما ظهر النعي في الصّحف، وجدت الكثير من معلوماته الخاطئة مطبوعة.

ابتاع أبي سيّارة جديدة قبل ثلاثة أيام من وفاته. لقد قادها مرّة واحدة أو مرّتين. وعندما عدت إلى منزله بعد الجنازة، وجدتها تربض في المرآب، ميّتة بالفعل، كمخلوق ضخم مُجهَض. لاحقًا، في نفس اليوم، ذهبتُ إلى المرآب للحظةٍ كي أختلي بنفسي. جلست خلف مقود السيارة، واستنشقت جِدّة الصّناعة الغريبة فيها. كانت القراءة في عدّاد المسافات سبعة وستين ميلًا. وحدث أنّ أبي كان في السابعة والستين من عمره أيضًا عندما مات. هذا الاختزال قد أصابني بالمرض. وكأنّ تلك القراءة كانت للمسافة بين الحياة والموت. رحلة قصيرة، بالكاد أطول من القيادة إلى المدينة المجاورة.

ندمٌ أمضى: لم أحظَ بفرصة لرؤيته بعد موته. لم أشغل نفسي بالأمر، فقد افترضت أن التابوت سيكون مفتوحًا خلال مراسم الجنازة. لكن حينها، عندما لم أجده مفتوحًا، كان الوقت متأخّرًا لفعل أي شيء إزاء ذلك.

عدم رؤيتي له ميتًا قد حرمني من عذابٍ كنت سأرحّب به. لم تكن نتيجة ذلك هي أنني شعرت بأن موته لم يكن حقيقيًّا، ولكنني كلّما أردت رؤيته على تلك الحال، كلّما أردت لمس حقيقة ما حدث، كان لابدّ لي من الانشغال بالتخيّل. فلا شيء هناك لأستدعيه من الذاكرة. لا شيء سوى شكل من الفراغ.

عندما كُشف عن القبر لإنزال التابوت، تبيّنتُ جذْرًا برتقاليًّا غليظًا ومندفعًا في الحفرة. كان له على نحو غريب تأثير مهدّئ عليّ. فللحظة لم تكن الحقيقة الصّرفة للموت قادرة على الاختباء خلف الكلمات والطقوس لوقت أطول. فلقد كانت هنا: دون وساطة ولا زينة، ومن المستحيل أن أشيح بعينيّ بعيدًا عنها. كان أبي يُنزل إلى الأرض، ومع الوقت، بينما يتفكّك التابوت، سيساعد جسده في تغذية ذلك الجذر الذي رأيته. أكثر من أي شيء أقيم في ذلك اليوم أو قيل على مسامعي، هذا الجذر هو ما كان له معنى بالنسبة لي.

كان الحَبَر الذي قاد مراسم العزاء هو نفسه من ترأّس حفل بلوغي قبل تسعة عشر عامًا. كان حينها رجلًا صغيرًا وحليق الوجه. لقد أسنّ الآن وزيّنت وجهه لحيةٌ رماديّة كاملة. في الحقيق، لم يكن يعرف عن أبي أيّ شيء. فجلست معه لنصف ساعة قبل بداية المراسم وأخبرته بما عليه قوله في التأبين. لقد دوّن بعض الملاحظات على قصاصات صغيرة من الورق. وعندما حلّ الوقت، تحدّث بمشاعر طاغية. كان الموضوع رجلًا لم يعرفه قط. ورغم ذلك، نجح في إعطاء انطباعٍ بأنه يتحدث عن رجل يعرفه معرفة تامّة. تحدث من أعماق قلبه حتى أنني سمعت بكاء

امرأةٍ خلفي. لقد قام بما قلته له كلمة كلمة.

يخطر لي الآن أنني قد بدأت بكتابة هذه القصة قبل وقت طويل جدًا، قبل وفاة أبي.

أستلقي مستيقظًا على الفراش ليلة تلو الأخرى، عيناي مفتوحتان في العتمة. يستحيل عليّ النّوم، يستحيل إيقاف التفكير في أمر موته. أجد نفسي أتعرّق بين الشراشف، محاولًا تصوّر شعور أن تصاب بنوبة قلبيّة؛ يُضَخّ الأدرينالين في عروقي، رأسي مُثقل، ويبدو أنّ جسدي كلّه راح يتقلّص في المساحة الصغيرة خلف صدري ويتكثّف فيها. أنا في حاجة للخوض في رعب مماثل للموت، مماثل لألم السكتة القلبيّة.

ثمّ تجيء الأحلام مساءً، كلّ ليلة تقريبًا. استيقظت قبل ساعات فقط من حلم رأيت فيه أن الابنة المراهقة لصديقة أبي كانت حاملًا منه. ولأنها مجرّد صبيّة صغيرة، فقد قررنا أنا وزوجتي أن نقوم بتربية الطفل. كان الطفل ذكرًا. وقد عرف الجميع بذلك مسبقًا.

ربما يصحّ القول بأن هذه القصة، فور انتهائي منها، ستذهب لتروي نفسها بنفسها رغم التوقف عن استخدام الكلمات.

السيّد المهذّب في الجنازة كان ساموئيل أوستر، عمي الكبير، عمّ أبي. لقد بلغ التسعين من عمره تقريبًا وكان طويلًا، أجرد الرأس وعالي النّبرة، وذا صوت خشن. لم ينبس بكلمة واحدة عن أحداث ١٩١٩،

ولم يكن لي قلب لأسأله عنها. قال: «اعتنيتُ بسام عندما كان طفلًا صغيرًا»، وهذا كل شيء.

وعندما سُئل ما إذا كان يريد شيئًا ليشربه، طلب كأسًا من الماء الدافئ: «ليمون؟»، «لا شكرًا، ماء دافئ فقط».

بلانكوت مرّة أخرى: «إن الاستثنائيّ يبدأ في لحظة توقفي عن الكتابة. وعندئذ، لا يعود بمستطاعي كتابته».

من البيت: مستندات قانونيّة من مقاطعة كلير في ولاية ألباما تُعلن بشكل نهائي طلاق والديّ. التوقيع في الأسفل: آنْ مع الحب.

من البيت: ساعة يده، وبعض قمصانه، وسترة وساعة تنبيه وستة مضارب تنس وسيّارة بيوك صدئة بالكاد تسير. وأيضًا مجموعة من الأطباق، وطاولة قهوة، وثلاثة مصابيح أو أربعة. أمّا تمثال جوني وولكر الذي كان واقفًا في غرفة البار فقد صار لدانيال. وألبوم الفوتوغرافات الفارغ «هذه حياتنا: الأوسترز».

ظننت في البداية أنّ التعلّق بتلك الأشياء سيريحني، ظننتها ستذكّرني دومًا بأبي وأنا أخوض حياتي. ولكنها على ما يبدو ليست شيئًا يعوّل عليه. لقد اعتدت عليها الآن، وبدأ يغزوني الظنّ بأنها تعود إلي. إني أقرأ الوقت من خلال ساعته، وأرتدي قمصانه، وأجول بسيّارته. ولكن ذلك كله وهمٌ من صنع الحنين. لقد قمت بالسّطو على أغراضه

والاستيلاء عليها. غاب أبي عنها، وصار غير مرئيّ بشكلٍ آخر. سيصيب أغراضه العطب عاجلًا أو آجلًا.. ستتفكّك إلى قطعٍ يجب رميها بعيدًا. ولا ريبة في أن ذلك لن يعني لي شيئًا وقتها.

«يبدو حقًّا أن من يعمل هو وحده من يحصل على الرغيف. وأنّ من يتألّم هو وحده من يجد الراحة. وأنّ من يتحدّر إلى العالم السفلي هو وحده من يُنقذ محبوبه. ووحده الذي يسحب السكّين من يستطيع النيل من إسحاق. أمّا الذي لا يعمل، فعليه أن يُحيط علمًا بما جرى على عوانس إسرائيل، لأنه لا يلد سوى الرّيح. فالمستعدّ للعمل هو وحده من يلد والده.»

كيركيغارد

إنّها الثّانية بعد منتصف الليل. إلى جانبي منفضة طافحة بالرماد، وكوب قهوة فارغ، وأشعر ببرد أوّل الرّبيع من حولي. وأرى خيال دانيال الآن، وهو مضطجعٌ في الأعلى ينام في مهده.

لأنتهي من هذا.

أفكّر: ماذا سيصنع بهذه الأوراق عندما يكبر بما يكفي لقراءتها؟.

وأرى خيال جسده الصغير، جسده اللطيف، الشّرس، وهو مضطجع في الأعلى، ينام في مهده.

لأنتهي من هذا.

كتاب الذّاكرة

(مطوّلات مقتطفة)

((قال الغراب والهيبة تملؤه: عندما ينوح الأموات، فقد بدأوا بالتشافي. فقالت البومة: آسف لاختلافي مع صديقي ورفيقي ذائع الصيت الغراب، ولكنني أرى أن الأموات عندما ينوحون، فهم لا يريدون أن يموتوا.))

كارلو كولودي، مغامرات بينوكيو

يفرد أمامه ورقة بيضاء على الطاولة، وبقلمه يكتب هذه الكلمات. كلماتٌ كانت، ولن توجد مرّة أخرى.

لاحقًا، في نفس اليوم، يعود إلى غرفته. ويقع على ورقة بيضاء نضرة، يفردها أمامه على الطاولة. كتَب حتى دفن بالكلمات البياض كلّه. وبعد حين، عندما يذهب لقراءة ما دوّنه، يصطدم باستحالة فكّ حروفه: ما الذي قام بتدوينه؟ . يبدو له أن تلك الأسطر التي يستطيع فهمها لا تقول ما ظنّ أنه قائله. يبقى هكذا حتى ينتهي به الأمر إلى الخروج وقت العشاء.

يقول لنفسه، تلك الليلة، بأنّ الغد يوم آخر؛ هناك كلمات جديدة سيضجّ بها رأسه. ولكنه على الرغم من صخبها، فإنه لا يدوّنها. يقرر أن يدعو نفسه بالحرف الأوّل من الأبجديّة ((أ)). يمشي بين النافذة والطاولة ذهابًا وإيابًا. يُشعل الراديو ثمّ يطفئه. يدخّن سيجارة.

ثم يكتب هذه الكلمات. كلمات كانت، ولن توجد مرّة أخرى.

ليلة عيد الميلاد من عام ١٩٧٩. لم يعد واثقًا من أنّ حياته تُقيم في الزمن الحاضر. فمتى ما أدار الراديو ليعرف أخبار العالم، يغرق في الاستماع إليه، ثم يقبض على نفسه وهو يتخيّل أن تلك الكلمات تصف أمورًا حدثت منذ وقت بعيد. وعلى الرغم من وقوفه في الزمن الحاضر، فإن شعوره نحو نفسه لم يتغيّر، فهو يشعر بأنه ينظر إليها من المستقبل. وهذا الزمن «الحاضر كالماضي» عتيق في داخله ومتقادم حتى أن أهوال اليوم العاديّ ومتاعبه، تلك التي من المفترض أن تملأه بالغضب، بدت

نائية عنه. وكأن الأخبار الطالعة من الراديو كانت تُقرأ من مجلّد وقائع تاريخيّة لحضارة بادت.

تاليًا، في ساعة من الصّفاء والصّحو العظيمين، سيدعو هذا الشعور الذي ينتابه بــ((نوستالجيا)) الحاضر.

يتبع النصّ السّابق شرح تفصيلي عن نظام عمل الذاكرة الكلاسيكية، مدعومًا بجداول وتخطيطات، ورسومات رمزيّة. الإتيان بملاحظات رامون لول، مثلًا، أو روبرت فلود، ولا حاجة إلى ذكر جوردانو برونو، النولانيّ العظيم الذي أُحرق عام ١٦٠٠. يُلحق بذلك قائمةٌ لصور وأماكن تعمل كبواعث لتذكّر صور وأماكن أخرى.؛ أحداث، وأشياء، وأغراض شخصيّة مدفونة: ما يصنعه امْرئ وحده وتدلّ على حياته.

تقنيات تقوية الذّاكرة.

يتبعُ ذلك مناقشة ملاحظة برونو القائلة بأن بنية الفكر الإنساني تُشاكل بنية الطبيعة. هذا هو الطريق لكي ننتهي إلى القول، بشكل أو بآخر، بأنّ كلّ شيء مرتبط بكلّ شيء. ثمّ، وفي الوقت نفسه، أي بالسير في تواز زمنيّ مع المتابعات أعلاه، تُطرح محاضرة طويلة عن موضوع الغرفة. صورة رجل، مثًلا، يجلس وحيدًا في غرفة. كما في قول باسكال: ((تنبع التعاسة الدائمة التي يواجهها البشر من أمر واحد: إن البشريّ عاجز عن المكوث في غرفته هادئًا)). أي كما في الحقيقة: ((لقد كتب كتاب الذاكرة في هذه الغرفة)).

كتاب الذاكرة

الكتاب الأوّل

ليلة عيد الميلاد من عام ١٩٧٩. يُقيم ((أ)) في مدينة نيويورك وحيدًا في ضآلة غرفته الواقعة في مبنى ٦ على شارع فيريك. ومثل باقي المباني في الجوار، كان هذا المبنى لزمن طويل مكانًا لورش العمل. إن بقايا الحياة السابقة في المبنى لا تزال تطلّ على ((أ)) من كل زاوية حوله: شبكات غريبة من الأنابيب، وأسقف قاتمة وصفيحيّة، وهسهسة تنبعث من أجهزة التدفئة بالبخار.

ومتى ما وقعت عيناه على الزجاج المضبّب لباب غرفته، يقرأ بالمقلوب هذه الكلمات المرسومة بطريقة ينقصها الإتقان «آر.إم.بولي: كهربائي مرخّص». ما كان من المفترض أن يعيش البشر هنا على الإطلاق. هذه غرفة نذرها بانيها للمكائن والآلات، للمباصق والعرق الغزير.

لم يكن بإمكانه أن يدعو هذا الحيّز منزلًا، ولكنه كان مأواه خلال التسعة أشهر الماضية، فلم يكن يعرف غيره؛ تتراكم كتبه إلى جانب مَرتبة نومه الممدودة على الأرض. تقف هناك أيضًا طاولة للكتابة وثلاثة مقاعد، وتوجد صفيحة تسخين كهربائية، وحوض متآكل للغسيل ذو صنبور لا تقطر منه سوى المياه الباردة. وعلى الرغم من وجود دورة

مياه مشتركة تقع في آخر الممر خارج الغرفة، فإنه لا يستخدمها إلا إذا أراد التبرّز. فهو يتبوّل في حوض الغسيل. إنّ ما جعله متردداً في أمر الخروج للتنزّه أو التبضّع هو أن المصعد مُعطّل منذ ثلاثة أيام، في حين أن هذه الغرفة تقع في الطابق العاشر!. ليست مهمّة صعود الطوابق العشر عند عودته من الخارج ما سببت له القلق من أمر مغادرة الغرفة، بل شعوره بالخذلان إذ يصل مُنهكًا ولا يجد سوى هذا الحيّز الكئيب والمنعزل والعاري. فهو بمكوثه في الغرفة لفترات طويلة من الزمن ومتّصلة، يقوم بشحن فراغ الغرفة بالأفكار. لهذا يتسبب خروجه من الغرفة في تبديد الحميمية التي يحاول نسجها، أو يجعلها غير ملموسة على الأقل. يجرّ أفكاره معه متى ما خرج، وأثناء فترة الغياب تلك، تقوم الغرفة بتفريغ نفسها ومحو كل جهوده لسُكناها وجعلها مأهولة. عليه أن يبدأ كل شيء من جديد عندما يعود، وهذا يتطلّب جهدًا مضنيًا وعملًا روحيًّا ضخمًا. لو أخذنا في الحسبان حالته الجسديّة بعد تسلّق الطوابق العشر (ينتفخ صدره بالهواء مثل وسادة، أمّا سيقانه فمتصلّبة مثل جذوع الشجر وثقيلة)، فسنعرف أن النضال الداخليّ الذي عليه خوضه سيستغرق وقتًا طويلًا حتى يشرع ((أ)) من جديد في محاولاته لسُكنى المكان. خلال الفاصل الزمني اللحظي بين فتح ((أ)) للباب والشروع في إعادة تأهيل الخواء، أثناء هذا الفراغ النسبي الذي يصطدم به، يهوي عقله في حالة من غياب اللغة التام، من الذّعر الأصم. يبدو الأمر له كما لو أنه قد أُجبر على مشاهدة غيابه نفسه؛ كأنه يدخل في بُعدٍ آخر حيث يمكنه أن يقطن ثُقبًا أسود يُنقّله بين زمن وزمن.

تتجارى من فوقهِ غيومٌ قاتمة، تقطع ضوءَ السماء الملطّخ بالحُمرة فاتحةً الأفق الليلي لمانهاتن. يتناهى إليه صوت ازدحام العربات المنطلقة

نحو نفق هولاند: جداول من السيارات تسعى للوصول إلى منازلها في نيوجيرسي ليلة عيد الميلاد هذه. أمّا الحياة في الغرفة الملاصقة لغرفته فهي ساكنة هذه الليلة. اعتاد الأخوة بومبونيو على الوصول إليها كلّ صباح، يدخّنون سجائرهم ويتابعون عملهم: جرش لوحات البلاستيك وتقطيعها لصنع أحرف أبجديّة تستخدم في الشواخص الضوئية وزجاج عرض الدكاكين. ينهمكون في حرْفتهم هذه لمدّة إثني عشرة ساعة يوميًّا أو أربع عشرة. يبدو أنهم يقضون ليلة العيد هذه في منازلهم، ويستعدون لتناول عشاء عائلي هادئ. قام أحدهم مؤخّرًا بقضاء إحدى الليالي في مكان العمل. كان شخيره متّصلًا إلى درجة أن ((أ)) لم يستطع النوم ولو بشكل متقطّع. كان الرّجل ينام مقابل ((أ)) تمامًا في الجهة الأخرى من الجدار الرقيق الفاصل بين الغرفتين. هكذا قضى ((أ)) الساعة تلو الأخرى مستلقيًا على مرتبة النوم، محدّقًا في الظلام، محاولًا تسيير أفكاره على مدّ أحلام الرجل النائم وجزرها؛ أحلامٌ نُخاميّة ومضطربة. يتورّم الشّخير بشكل تصاعدي ويعلو، حتى إذا وصل أقصاه في كلّ دورة من دوراته، يصير متّصلًا وثاقبًا، يصبح هستيريًّا. كأنّ هذا الرجل، عبر شخيره في الليل، يواصل ضجيج المكائن التي تبقيه متأهّبًا للعمل أثناء النهار. ولكن في ليلة عيد الميلاد هذه، استطاع ((أ)) أخيرًا أن ينعُم بنوم رائق لا يكدّره شيء؛ نومٌ لا يمكن لوصول بابا نويل نفسه من أن يعكّره.

نعيش الآن فترة دخول فصل الشتاء: أكثر أوقات السنة ظلامًا ودكنة. ما كاد أن يستيقظ صباحًا حتى شعر بالنهار ينسرب منه. لم يكن هناك من ضوء كاف ليغرس أسنانه فيه، ليقتطع حصّته. لا شعور بأن الوقت ينطوي ويتقدّم، بل كان شعورًا بأبواب تتغلّق، وبأقفال تُدار.

يا له من فصل كتيم الهواء، لحظة طويلة الأمد من الغرق الداخلي. أمّا العالم الخارجي، ذاك الملموسة أشياءه وأجسامه، فلا يبدو له سوى فيض محض من فيوضات ذهنه. يشعر أنه ينزلق بين أحداث العالم، يهيم مثل شبح حول حضوره الجسدي، كأنه يحيا في مكان ما بالقرب من نفسه- ليس حقّا هنا، وليس في أيّ مكان آخر. شعور غامض بالانحباس، بالانسجان، يرافقه إحساس بالقدرة على النفاذ من خلال الجدران.

دوّنَ في مكان ما من هوامش دفتر أفكاره:

ظُلمةٌ في العظام. أكتب عن هذا.

ينبجس البخار من أجهزة التدفئة بعنفوان مطلق أثناء النهار حتى يجد ((أ)) نفسه مجبرًا على فتح مصاريع النوافذ إلى أقصاها لموازنة درجة الحرارة في الغرفة غير مكترثٍ بالشتاء القارص في الخارج. أمّا الليل، فلا دفء فيه، ولا أقلّ القليل منه. لهذا ينام بلباس كامل؛ كنزتين أو ثلاث، مُنطويًا على نفسه بإحكام في جراب النوم. أمّا في عطل نهاية الأسبوع، فإن نظام التدفئة لا يعمل بتاتًا، لا في النهار ولا في الليل. وقد مرّت عليه ساعاتٌ كان فيها يجلس إلى طاولته محاولًا الكتابة دون أن يستطيع الشعور بالقلم بين أصابعه. هذا الافتقار إلى الرّاحة، في حدّ ذاته، لا يقلقه. بل إن له تأثيرًا يُبقيه خارج التوازن وضده، ممّا يحثّه على الثبات في حالة دائمة من مطالعة الذات ومراقبة الباطن. وعلى الرغم ممّا قد تبدو عليه هذه الغرفة، فإنها ليست انسحابًا من العالم ولا بعيدةً

عنه. لا يوجد هنا ما يرحّب بـ((أ))، فالغرفة لا تقدّم وعدًا بأيّ راحة جسديّة قد يأمل أن تستدرجه إلى عالم النسيان. فهذه الجدران الأربعة لا تُحيط سوى بعلامات حيرته. ولكي يجد مقياسًا يقيس من خلاله سكون العالم من حوله في ليلة عيد الميلاد هذه، فإنه راح يحفر داخله أكثر وأكثر. ولكنه كلّما أمعن في الحفر، قلّ ما بقي في داخله ليحفره. هذه حقيقة لا يطرقها الشك عنده. سيفيق يومًا ما وقد استنفد دواخله كلّها. إنه رهين هذه الحتميّة.

حين يقبل الليل تنخفض طاقة الكهرباء إلى النصف، ثم تعلو حينًا، ثم تهبط مرّة أخرى، دون سبب واضح. كأنّ الأنوار تستلقي تحت رحمة إله مخادع ويحبّ المزاح. ليس في أرشيف شركة الكهرباء أيّ مستند يدلّ على المكان أو يُثبت وجوده، فلم يكن على أحد قط أن يدفع مقابل الكهرباء. أمّا شركة الهاتف، فقد رفضت الاعتراف بوجود ((أ)) أصلًا. لقد مضت تسعة أشهر على عمل الهاتف هنا دون انقطاع، ولكن لم تُصدَر في حقّه أيّة فاتورة. وعندما هاتف ((أ)) الشركة ليستقيم الوضع وتنتهي المشكلة، أصرّ الموظف على أن الشركة لم تسمع قط بهذا العنوان ولم تعرفه. فبطريقةٍ ما، انسلّ ((أ)) من بين براثن الكمبيوتر، ولا يوجد أيّ تدوين لمكالماته بأيّ شكل من الأشكال. اسمه خارج السجلات. لو كان الأمر يعجبه، لقضى أوقات فراغه يضرب الأرقام ويهاتف أماكن بعيدة. لكنه في الحقيقة لا يعرف أحدًا ليتجاذب أطراف الحديث معه؛ لا في كاليفورنيا، ولا باريس، ولا حتى الصين. انكمش العالم بالنسبة له حتى صار بحجم هذه الغرفة، هذه الغرفة وحسب، وعليه أن يبقى في مكانه حتى يستوعب هذه الفكرة ويستبطنها. لم يعد واثقًا من أيّ أمر عدا هذا: ليس بإمكانه الوجود في أيّ مكان آخر إن لم يوجد هنا.

وفي حال أنه لم يتمكن من تدبّر أمر هذا الحيّز، فسيبدو سخيفًا أن يفكّر بالذهاب للبحث عن حيّزٍ آخر للسكن.

الحياة داخل الحوت. نظرة عجْلى نحو يونس، وما الذي يعنيه أن ترفض الكلام وتُمسك عنه. نصّ موازٍ: المعلّم جيبيتو في بطن القرش (يتحوّل الحوت إلى قرش في نسخة أفلام ديزني)، وقصّة إقدام تلميذه بينوكيو على إنقاذه. هل على الفتى حقًّا أن يغوص البحر حتى أعمق أعماقه في سبيل إنقاذ أبيه، كي يستحق أن يكون ابنه؟.

أكتب جملة تقديميّة لذاك كله. وجِدْ تركيبات أخرى لملاحقة الفكرة.

ثمّ أكتب عن حُطام السّفن. قال روبنسون كروزو في جزيرته: ((سيكون ذاك الصبيّ سعيدًا إذا قَرّ في بيته وسكن. ولكنه، إذا ما ابتعد، سيُمسي أتعس البؤساء الذين ولدوا منذ الأبد)). الوعي بالعزلة. أو كما في عبارة جورج أوبنز ((حُطام الانفراد)).

منظرٌ للأمواج، مُحاطًا بها من كلّ جهة. ماءٌ أبديٌّ كالهواء، والغابة تسخُن من وراءه ((لقد انشقَقْتُ عن البشريّة، لقد تفرّدت، وأمسيت واحدًا منفيًّا عن المجتمع البشريّ))

هكذا ابتدأ الأمر. قام صديقه ((م)) بإخباره عن قصّة ما. ثم مضت سنوات على ذلك، فوجد نفسه فجأة يفكّر في تلك القصة. لا أقول أن تذكّره المفاجئ للقصّة كان حتميًّا لأنه أراد أصلًا تذكرها، أو صار مُحتملًا بسبب غرابتها. بل أقول إن تذكّره للقصّة ابتدأ مع تذكّره لقصص أخرى كثيرة لا وجود لأيّ علاقة بينها. لقد تذكّرها بسبب آليّة التذكّر نفسها، أي بسبب القيام بفعل التذكّر المحض دون تحديد لما يُمكن أن يتذكّره. فهو لم ينتبه لما كان يحدث له إلا عندما تفاجأ من تذكّره لهذه القصة. إن هناك أمرًا ما يحدث له، إذ ما كان للقصّة أن تُطلّ هكذا من غياهب النسيان لو أنها كانت تحمل شعورًا خاصًّا في داخله، شعورًا يُعرّفها عن غيرها ويُفردها، فذلك يجعلها حاضرةً في باله أبدًا، ولكنها كانت قصّة لا يميّزها شيء على الإطلاق. اتضح له أنه كان ينقّب ذاكرته، غافلًا عن نفسه، هابطًا إلى مكان من الذكريات المتلاشية. والآن، بما أن هناك ما طفا من الأسفل المتلاشي وظهر إلى السطح، فلم يستطع معرفة كم من الوقت قد مضى عليه وهو ينبش ذاكرته ويحفرها دون أن يشعر.

اختبأ والد ((م)) عن النازيين في إحدى الشقق الرخيصة في باريس أثناء الحرب العالمية الثانية. كانت شقة وحيدة الغرفة وفي أعلى طابق من المبنى، ولا طريق إليها سوى الدرج. ثمّ استطاع تدبّر أمر هروبه إلى أميركا بعد عدة أشهر من الانزواء، وشرع في حياة جديدة. وأثناء مضي أكثر من عشرين عامًا على ذلك، وُلد ((م)) ونضج، وصار على أهبة الذهاب إلى الدراسة في باريس. مرّت عليه أسابيع صعبة هناك لم

يعثر خلالها على مكان للسكن. وعندما أوشك على اليأس وبدأ القنوط يستولي عليه، وجد شقّة رخيصة ذات غرفة واحدة، وفي أعلى طابق من المبنى، ولا طريق إليها سوى الدرج. فكتب فورًا رسالة بعثها إلى والده ليبشّره بانتهاء معاناته وليخبره عن عنوانه في باريس. وبعد عدّة أسابيع، استلم ((م)) جواب أبيه: «عنوانك هذا كان ملجئي عندما كنت مختبئًا ليالي الحرب». ثمّ راح يفصّل لإبنه شكل المبنى ويصف المكان بحذافيره. اتضح لاحقًا أنه كان على حق؛ إن مسكن الإبن هو نفسه مخبأ الأب في وقت مضى.

هذه هي قصّة ((م)) التي تذكّرها ((أ)). ويبدو الآن أن أمر تذكّره للقصّة قد ابتدأ من هذه الغرفة التي يجلس فيها وحيدًا في ليلة عيد الميلاد من عام ١٩٧٩ . ويصحّ القول بأن الأمر قد ابتدأ من تلك الغرفة الباريسيّة أيضًا. وإلى جانب الغرفتين هناك ثيمة الأب، وثيمة الابن، وثيمة «الحرب». ولهذا لابد من الحديث عن الخوف. لابد من تذكّر أن الرجل كان يختبئ لأنه يهودي. ولابد من الإشارة إلى أن المدينة كانت باريس وقد عاد منها ((أ)) منذ وقت قريب (الخامس عشر من ديسمبر). لقد عاش فيها ما يقارب العام، في إحدى الشقق الرخيصة؛ وحيدة الغرفة وفي أعلى طابق، ولا طريق إليها سوى الدرج. هناك حيث كتب أوّل مجموعة شعريّة له، وحيث جاءه والده ليزوره في رحلته الوحيدة إلى أوروبا. لابد له الآن من أن يكتب متذكّرًا وفاة أبيه. ووراء ذلك كلّه، عليه أن يفهم الأمر الأهم: فعلى الرغم من تذكّرة لقصّة ((م)) وإطنابه في الحديث عن تداعياتها، فإن قصّة ((م)) خاوية من أيّ معنى.

ومع ذلك، فمن هنا ابتدأ الأمر. لا تكشفُ الكلمةُ الأولى عن نفسها إلا في لحظة لا يمكنك فيها توضيح أيّ شيء، في وهلة من التجربة تهزم المنطق والحس. أن تتقلّص حتى الصمت. أن تقول لنفسك: «هذا ما يطاردني». لتُميّز في نفس اللحظة إلى أنّ هذا بالتحديد ما تقوم أنت بمطاردته.

يفرد أمامه ورقة بيضاء على الطاولة، وبقلمه يكتب هذه الكلمات. اقتباسٌ يمكن أن ينضاف إلى كتاب الذاكرة.

ثمّ يفتح كتابًا عنوانه Opus Posthumous لمؤلّفه والاس ستيفنز، وينقل عنه هذه الأسطر: ((عندما يكون الواقعُ حاضرًا في الذّهن بشكل طاغ، فإن الوعي يحُلّ محلّ المخيّلة))

في وقت لاحق من نفس اليوم، راح يكتب بشكل متواصل لثلاث ساعات أو أربع. بعدها، عندما مضى يقرأ ما كتبه، لم يجد غير فقرة واحدة تطرح ما هو مثير ومبتكر. ثمّ لم يعرف ما الذي يفعله بهذه الفقرة الوحيدة. فقرر أن يحتفظ بها جانبا كفقرة مستقبليّة، ودوّنها في دفتر ملاحظاته المسطّر:

> *عندما يموت الأب، يصير الابن أبا نفسه، وابن نفسه في نفس الوقت. ينظر إلى وجه طفله ويرى نفسه في وجه الصّبي. يتخيّل ما الذي يراه الصبيّ عندما يلتفت نحوه وينظر إلى وجهه، ويتكشّف للصبيّ أنه أبو نفسه. ولسبب غامض، يجد نفسه مأخوذًا بهذه الفكرة. ليس منظر الصبيّ*

مُكتشفًا الحقائق هو ما دوّخه باللذة، ولا حتى فكرة أنه يقف داخل أبيه، ولكنه الذي يراه في وجه الصبي من حياته الماضية، المتلاشية. إنها حالة من «النوستالجيا» لحياته نفسها، هذا ما يشعر به، ربما ذكرى لطفولته كإبن لوالده. ولسبب غامض أيضًا، يجد نفسه يرتعش في تلك اللحظة من الفرح ومن الأسى معًا، لو كان هذا ممكنًا، وكأنه يتقدّم وفي نفس الوقت يتخلّف، نحو المستقبل ونحو الماضي معًا. وهناك أوقات، ودائمًا ما كانت هناك مثل هذه الأوقات، عندما تكون هذه المشاعر في أشدّ قوّتها وانفلاتها حتى يعود غير واثق من أنّ حياته تقيم في الزمن الحاضر.

الذّاكرة بوصفها مكانًا؛ مبنى ذو أعمدة متتابعة، وأفاريز وأروقة، أي مادّة متجسّدة داخل الذّهن نقوم بالسير فيها والتنزّه، ذاهبين من هنا إلى هناك، ونسمع أصوات وقع أقدامنا، مُنَقّلين خطونا من مكان إلى آخر.

«على المرء أن يحفظ أكبر قدر من الأماكن في ذاكرته، وأن يفعّلها ويوظّفها»، كتب شيشرون، «ولهذا يجب أن تكون مُضاءة بشكل جيّد، ومُرتبة بوضوح وتتابع، ومفصولة بفترات زمنيّة معتدلة». وعليه أيضًا أن «يرتّب الصور المثيرة للأماكن، الصور حادّة التفاصيل وغير الاعتيادية، والتي تملك من القوّة ما يجعلها تُستدعى صدفة مرّات كثيرة، ما يجعلها في كلّ صدفة خارقة للروح. فالأماكن التي تحفظها الذاكرة تشبه ورق البُرديّ الفارغ، والصور المثيرة تحوّل ورق البُرديّ إلى رسائل ذات معنى. وأمّا محاولة ترتيب الصور وتنظيم طريقة عرضها فهذا ما يجعل من الرسائل مخطوطة. وأمّا الكلام عن الصور، فيشبه

قراءة المخطوطة».

عاد من باريس قبل عشرة أيام. كان هناك في رحلة عملٍ كانت الأطول له خلال الخمس سنوات الماضية. رحلة من الاجتماعات المتّصلة والنقاشات، وجلسات الشُّرب المتتابعة مع أصدقاء قدامى.. رحلةٌ من الابتعاد طويلًا عن صبيّه الصغير، رحلةٌ استنزفته. تمكّن من توفير آخر أيّام الرحلة كي يقضي وقتًا لنفسه بعيدًا عن العمل. فقرر الذهاب إلى أمستردام، فهو لم يزرها قطْ. طرق رأسه أمر واحد فيها: اللوحات التشكيلية. لكن الأمر الذي لم يخطّط لحدوثه في أمستردام هو ما خلق انطباعًا لا ينسى في داخله. إذ دون سبب واضح (كان يقلّب دون اكتراث كتيّبا سياحيًّا في غرفة الفندق) قرّر زيارة منزل آن فرانك، والذي تمّ التحفّظ عليه كمتحف. كان صباح أحَد رماديّا ومطيرًا، وقد فرغت الشوارع من الناس على طول قناة المياه. ولج المنزل وصعد درجًا مائلًا وضيّق المساحة نحو غرفة آن فرانك، حيث كتبت كتاب يوميّاتها المشهور. صارت الغرفة شاحبة، أمّا ما تحمله على جدرانها من صور مشاهير هوليوود، تلك التي جمعتها فرانك، فلم يبق منها سوى الأثر الأبسط. وبغتة، وجد نفسه ينخرط في البكاء. لم يكن بكاؤه انتحابًا كذلك الذي يحدث عندما يتحرّك في داخلك ألم عميق. بل كان بكاء صامتًا، والدمع يهمي مسترسلًا على وجنتيه بهدوء، كأنّه يقوم بذلك كردّ فِعل صاف على العالم. انتبه لاحقًا إلى أنه بدأ، في تلك اللحظة، بكتابة كتاب الذاكرة. أي كما في الحقيقة «لقد كتبَت كتاب يوميّاتها في هذه الغرفة».

نافذة الغرفة تطلّ على الحديقة الخلفيّة، و تمكن عبرها رؤية النوافذ الخلفيّة لمنزل كان يقطنه مرّة ديكارت. أطفال يتأرجحون في الحديقة الآن، وألعابهم متناثرة على وجه العشب، وهناك ورود صغيرة وجميلة. كان ينظر عبر النافذة عندما خطر في باله: ماذا لو أن الأطفال، أصحاب اللعب المتناثرة تلك، يملكون أيّة فكرة عمّا حدث هنا قبل خمسة وثلاثين عامًا، في هذه البقعة التي يقف فيها الآن. ولو أنهم يدركون ذلك، هل سيكون بإمكانهم الإجابة على سؤاله: ما شكل الحياة وأنت تكبر تحت ظلال غرفة آن فرانك؟.

يُكرّر مقولة باسكال:

((تنبع التعاسة الدائمة التي يواجهها البشر من أمر واحد: إن البشريّ عاجز عن المكوث في غرفته هادئًا)).

في نفس الوقت الذي كتب فيه باسكال تلك العبارة الواردة في كتابه Pensees في فرنسا، كتب ديكارت رسالةً إلى صديق له في فرنسا من غرفته الواقعه في أمستردام: ((هل من بلدٍ أيّا كان موقعه))، سأل بحيوية وعنفوان، ((يُمَكّن المرءَ من التمتّع بالحياة بحريّة هائلة، كما أفعل هنا؟)). تمكن قراءة أيّ شيء كإطلالة على أيّ شيء آخر. أن نقوم مثلًا بتخيّل آن فرانك وهي تعيش فترة ما بعد الحرب، قارئةً تأمّلات ديكارت كطالبةٍ جامعيّة في أمستردام. أن نتخيّل عُزلتها شديدة الوطء، عُزلة ماحقة، لا عزاء لها ولا سلوان منها، حتى أن المرء يحبس أنفاسه لمئات السنين من هولها، بعكس الحُريّة التي كتب عنها ديكارت في رسالته.

يدوّن بافتتان لا يُخفيه أنّ تاريخ ميلاد آن فرانك هو نفسه تاريخ ميلاد ابنه: الثاني عشر من يونيو. عالمٌ فيه كلّ شيء مزدوج، حيث الحدث يقع مرّتين.

الذاكرة: المساحة التي يمكن أن يحدث فيها الأمر نفسه مرتين.

كتاب الذاكرة

الكتاب الثاني

يقف وقوف المحدّق المتأهّب. يجلس. يستلقي على سريره. يتيه في الشوارع. يأكل وجباته في مطعم Square Diner؛ وحده في قاعة الأكل، وصحيفة مفرودة أمامه على الطاولة. يفضّ رسائله البريدية، يُجيب عليها. يقف ويحدّق. يعبر الشوارع. أخبره صديق قديم له يُدعى ((ت)) بأن عائلتيهما جاءتا من نفس الحاضرة؛ حاضرة ستانيسلاف من شرقيّ أوروبا. كانت قطعة من الإمبراطورية الهنغارية-النمساوية قبل الحرب العالمية الأولى. وبين الحربين كانت جزءًا من بولندا. والآن، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، أمست ضمن الاتحاد السوفييتي. خمّن ((ت)) في أوّل رسائله لي بأننا قد نكون أبناء عمومة. وقد حملت رسالته الثانية بعض التوضيح. لقد عرف ((ت)) عن طريق إحدى عمّاته المعمّرات بأن عائلته كانت من أغنى عائلات ستانيسلاف، بينما كانت عائلة ((أ)) من بين الأفقر في تلك الحاضرة (وهذا يوافق كل ما عرفه طوال حياته عن عائلته). القصة هي أن أحد أقارب ((أ)) عاش في مخدع صغير في بناية تملكها عائلة ((ت)) ووقع في عشق سيّدة صغيرة

من تلك العائلة. تقدّم للزواج منها ولكنه عاد خائبًا. هكذا قرّر أن يهجر ستانيسلاف إلى الأبد.

ما خلب لبّ ((أ)) في هذه القصة هو أن اسم الرجل المهاجر هو نفسه اسم طفله.

قضى جلّ وقته في أمستردام ضائعًا في شوارعها. عاش ثلاثة أيام من التيه. فمخطّط المدينة دائري (حلقات متّحدة المركز، تشطرها قنوات مائيّة ثم تتفرّع عنها، وتتساقط عليها ظلال مئات الجسور الصغيرة التي يفضي واحدها إلى الآخر في تتابع أبديّ). هكذا، لا تستطيع ببساطة أن «تسلك» شارعًا ما كما قد تفعل في المدن الأخرى. إذا كنت تريد الذهاب إلى مكان ما، فعليك أن تعرف مسبقًا كيف تصل إليه. لكن ((أ)) لم يعرف ذلك، فقد كان غريبًا، ووجد نفسه غير راغب في الاستعانة بأيّة خارطة أو دليل.

ضلّ سبيله وزاغْ. طاف في دوائر لا تنتهي. أعطى نفسه أن تضيع. عرف لاحقًا أنه كان في بعض الأوقات على بعد أقدام بسيطة عن وجهته، ولكنه لم يعرف أين ينعطف. هكذا يروح في الدّرب الخطأ، آخذًا نفسه أبعد وأبعد عن المكان الذي ظنّ أنّه ذاهبه. تصوّر أثناء ذلك أنه ربما يجول تائهًا في دوائر الجحيم، تصوّر أن المدينة قد صُمّمت طبقًا إلى نموذج للعالم السفلي، نموذج مستَلّ من إحدى التخطيطات الكلاسيكية لذاك العالم. ثمّ تذكّر أن هناك العديد من التصميمات الموضوعة في تصوّر جهنم، وقد استخدمها بعضٌ من علماء القرن السادس عشر كأنظمة لفهم الذّاكرة وكيفيّة عملها. لو كانت أمستردام هي الجحيم، والجحيم هي الذاكرة، فإنه سيجد حينها معنىً في ضياعه هذا. مَقطوعًا عن كل ما

هو مألوف له، مشلولًا عن أيّة قدرة للتعرّف على مَعْلم أو جهة. هكذا وجد أن خُطاه، عبر أخذه إلى لا مكان، كانت تأخذه إلى داخله. كان يجول داخل نفسه، وكان ضائعًا. ما عاد ذهنه قادرًا على تصنيف الضياع كمشكلة، فقد غدت المشكلة مصدر سعادة له وحبور؛ تنفّسها حتى العظام، وكأنه على وشك الكشف عن معارف قديمة ومخفيّة.. كان واقفًا على تخومها، تنشّقها وهتف بما يشبه الانتصار: أنا تائه.

لم تعد حياته تقيم في الزّمن الحاضر. إذ كلّما رأى طفلًا راح يتخيّل ملامح وجهه عندما تأخذه الفتوّة بعد سنوات. وكلّما رأى شيخًا، راح يتصوّر شكله عندما كان في ريعان صباه.

يسوء الأمر أكثر مع النساء، وبخاصة إذا كان يحدّق في وجه فتاة فاتنة. لا يستطيع أن يمنع عينيه من اختراق بشرة وجهها كاشفًا عن جمجمتها. وكلّما كان الوجه حَبيبًا، راح اتّقاده يتعاظم للعثور على علامات المستقبل العدوّ، علامات الزمن الغريم: التجاعيد في أوّل استهلالها، والذّقن السائر نحو الترهّل، ولمحة الخيبة الماثلة في ماء العينين. ويُراكم أحيانًا الوجوه فوق بعضها: هذه المرأة في الأربعين من عمرها الآن، وهذه هي نفسها عندما تبلغ الستين، وهذه هي في الثمانين. وكأنه على الرغم من وقوفه في الزمن الحاضر، فإنه يجد نفسه مدفوعًا لقَنْص المستقبل، لتعقّب الموت الذي يقف حيًّا داخل كلّ واحد منّا.

تعليق ثانٍ عن طبيعة الصّدفة

الذّاكرة بوصفها غرفة، جسدًا، جمجمة. بوصفها جمجمة تضمّ غرفة

يجلس فيها جسد ما. وكأننا في هذه الصورة: «رجل يجلس وحيدًا في غرفته».

لاحظ القدّيس أوغسطين أن:

((للذّاكرة قوّة جبّارة. إنها حَرَمٌ لا مدى لاتساعه. مَن يقدر على سَبر أعماقها؟. وعلى الرغم من ذلك فإنها طَوع أمْر روحي. وعلى الرغم أيضًا من كونها جزءًا من طبيعتي، فإنني لا أملك الإحاطة بها، ولستُ قادرًا على فهم كل هذا الذي هو أنا. ممّا يعني، إذًا، أنّ العقل أضيق من أن يحتوي نفسه بشكل كلّي. ولكن، أين هو ذاك الجزء الذي ينتمي إليه العقل ولكنه لا يحتويه؟ هل هو في مكان خارج العقل وليس في داخله؟ وكيف، إذًا، يكون جزءًا منه إذا لم يكن يحتويه؟.))

كتاب الذاكرة

الكتاب الثالث

كان ذلك في باريس عام ١٩٦٥ عندما فتح عينيه لأوّل مرّة على الاحتمالات اللامتناهية التي قد تضمّها مساحة محدودة. حدث ذلك عن طريق صدفة قادته إلى التعرّف في أحد المقاهي على ((س)). كان ((أ)) قد بلغ الثامنة عشر من عمره في ذلك الصيف الفاصل بين المرحلة الثانوية والجامعة، ولم يكن قد زار باريس من قبل. هذه هي ذكرياته الأبكر عن المدينة التي سيقضي فيها شطرًا كبيرًا من حياته لاحقًا، وذكرياته هذه معقودة بفكرة الغرفة ومرتبطة بها بشكل لا مفرّ منه.

عاش ((س)) في حي بليس باينل الواقع في القطعة الثالثة عشرة من باريس. وهو من الأحياء المصنّفة للطبقة العاملة. ورغم ذلك، فإنه يُعتبر من بين آخر الأماكن الحاملة لبقايا باريس القديمة؛ باريس التي يتحدّث عنها المرء لكنه لم يعد يراها منذ زمن. وهناك عاش ((س)) في مساحةٍ تُقاومك إذا هممت بالولوج إليها، وتلمسُ مِنعتها عن الافتضاض. إن حضور شخص واحد في الغرفة لهو أكثر من كافٍ لجعلها مكتظّة. أمّا حضور شخصين فيخنقها تمامًا. تستحيل الحركة في الغرفة دون أن يتقاطع جسدك مع أبعادها الضئيلة، دون أن يتقاطع ذهنك مع نقطة صغيرة جدًا وبالكاد تشكّل نفسها. حينها فقط يمكنك البدء في التنفّس، في الشعور بالغرفة تتّسع. ترى حينها أن ذهنك قد بدأ يكتشف أقاصي المكان التي كانت غير مُدركة، فهناك كَونٌ بأكمله،

هناك مجرّةٌ مُصغّرة تقبض على كلّ ما هو مديد وناء ومجهول. إنها ضريح مقدّس، أكبر من الجسد بقليل، احتفاءً بكلّ ما يتجاوز هذا الجسد ويوجد بعده: تمثيلٌ للعالم الداخلي لرجُلٍ حتى أدقّ التفاصيل. نجح ((س))، حرفيًّا، في إحاطة نفسه بالأشياء التي تسكن أصلاً في داخله. كانت الغرفة التي عاش فيها مسرحًا للأحلام، وجدرانها مثل جلد لجسد آخر يحيط به، وكأنّه قد تحوّل إلى مجرّد ذهن، إلى آلة ذات أنفاس من الأفكار الخالصة. ذاك هو الرّحم، ذاك هو جوف الحوت وموطن الخيال الأم. فعبر التموضع في الظلام، استطاع ((س)) اختراع طريقة للحلم بعينين مفتوحتين.

لم يكن للشمس أن تتسلل إلى تلك الغرفة في بليس باينل. لقد كسا النوافذ بقماش أسود ثخين بحيث لا يتخلّل نور الشمس المكان. الضوء الوحيد في الغرفة يأتي شحيحًا من مصابيح ناعسة وموزّعة باستراتيجية محسوبة. مساحة الغرفة بالكاد أوسع من مقطورة في قطار من الدرجة الثانية، ولها نفس الشكل تقريبًا: ضيّقة، ذات أسقف عالية ونافذة واحدة وبعيدة. لقد نثر ((س)) في المكان جحافل من أنقاض حياته بأكملها: كتب، وفوتوغرافات، ومسوّدات، وطواطم شخصيّة.. وكل ما يحمل مدلولًا بالنسبة له. الأرفف مكتظّة بتلك الأغراض المتراكمة حتى السّقف، وتراها مُنحلّة ومائلة إلى الأمام قليلًا، وكأن أقلّ هزّة سوف تُفقدها توازنها دافعةً هذه الفوضى كلها إلى الانهيار فوق ((س)). عاش ((س)) فوق سريره؛ زاول أعماله هناك وتناول طعامه وقضى ليله. هناك بعض الأرفف الصغيرة، إلى يساره مباشرة، تلتصق بالجدار، ويبدو أن ((س)) قد وضع عليها كل ما يحتاجه ليقضي اليوم وهو في مكانه: أقلام رصاص، وأقلام حبر، ومحابر، وأوراق مسطّرة

لكتابة النغمات الموسيقية، وحاملة سجائر، وراديو، ومدْية، وقناني نبيذ، وأرغفة خبز، وكتب وعين مكبّرة. أمّا عن يمينه فتوجد ساق معدنيّة قد ثُبِّت إليها صحن معدنيّ متحرّك، يستطيع أن يقرّبه منه وهو على سريره وأن يبعده عنه. إنه يستخدمه كطاولة للعمل والطعام أيضًا. إنها حياةٌ عاشها كما قد يفعل كروزو: حُطام السّفينة في قلب المدينة. لم يكن هناك من أمر لم يحسب حسابه ((س)). ففي فقره المدقع هذا، استطاع أن يتدبّر أمره بطريقة أكثر فعاليّة من العديد من أصحاب المليارات. وعلى الرغم من وضعه الغريب هذا، فإنه يبقى واقعيًّا حتى في أغرب أطواره. لقد اختبر نفسه مرارًا حتى أدرك ما هو ضروريّ لبقائه حيًّا، وقد رضي بما توصّل إليه من نتائج وحلول مراوغة كشروط أساسيّة لحياته. لم يكن هناك في سلوكه تصرف واحد عاطفي أو نابعُه التنسّك، لا شيء يوحي حتى بعزلة الزّاهد. بل على العكس، كان ((س)) يُعلي من شأن حياته هذه ويمجّدها بشغف ومتعة وحماسة. والآن، عندما ينظر ((أ)) إلى الخلف قاطعًا كل المسافة الزمنيّة التي تفصله عن ((س))، يُدرك أنه لم يعرف قط شخصًا يضحك كثيرًا مثل ((س)) وبصخب.

الكتاب الرابع

أمضى الجزء الأكبر من شبابه شاقًّا مُدنًا أكثرها غريبة. أمضى الجزء الأكبر من شبابه منحنيًا على قطعة خشب مستطيلة، محدّقًا في مستطيل أصغر منها من الورق الأبيض. أمضى الجزء الأكبر من شبابه يقف من الطاولة ويجلس إليها، ويوازن جلسته إلى الأمام والخلف. هذه هي حدود العالم المعلوم بالنسبة له. يُنصت. عندما يطرق سمعه شيء، يصيخ السمع مرّة أخرى. ثمّ ينتظر. يراقب وينتظر. وعندما يبدأ في رؤية شيء ما، يراقب، وينتظر مجدّدًا. هذه هي حدود العالم المعلوم بالنسبة له.

الكتاب الخامس

بعد شهرين من وفاة أبيه في يناير ١٩٧٩، انهار زواج ((أ)). اختمرت خلافاته مع زوجته لبعض الوقت حتى وصلا إلى قرار الانفصال المؤقّت كحلّ أخير. كان أمرًا ذا بال أن يَقبل بهذا الانفصال، وأن يشعر بعد ذلك بالبؤس، وأن يفهم أنه ما كان ممكنًا تلافيه. ولكن تبعات الانفصال جاءت كأمر آخر عليه تجرُّع مراراته: الانفصال عن ابنه. إنه لا يطيق حتى مجرّد التفكير في الأمر.

انتقل إلى غرفته على شارع فيريك في أوّل الربيع، وقضى أوّل ثلاثة أشهر بعدها متنقّلا بالحافلات بين غرفته والبيت الواقع في مقاطعة دوتشيز بولاية نيويورك، حيث عاش هو وزوجته طوال الثلاث سنوات الماضية. أوقات وسط الأسبوع: عزلة في المدينة. أوقات نهاية الأسبوع: زيارات لذلك البيت في ريفٍ يبعُد مئة ميل عن مدينة نيويورك، حيث ينام في غرفة صارت الآن مكان عمله، ويلعب مع طفله الذي لم يبلغ وقتها العامين من عمره، قارئًا له كنوز الكتب حينها: «لنذهب أيتها الشاحنات» و«قبّعات للبيع»، و«الأمّ غوس».

لم يمض من الوقت الكثير على انتقاله إلى العيش على شارع فيريك، حتى اختفى طفل في السادسة من عمره يُدعى إيتان باتز. أينما التفت ((أ)) وقتها، تصطدم عيناه بصورة للصّغير (على أعمدة الإنارة، وزجاج عرض الدكاكين، والجدران الحجريّة الفارغة) وقد طُبع عليها

بخطّ عريض: طفل مفقود.

ولأنّ وجه الطفل المفقود لا يختلف كثيرًا عن وجه ابنه (ربما كان مختلفًا عنه تمامًا، ولكن ذلك لن يغيّر من الأمر شيئا)، فقد كان كلّما رأى وجه الطفل راح يفكّر بقلقٍ في ابنه- وبالضبط في هذه الكلمات: طفل مفقود. ففي صباح ما، سمحت والدة إيتان باتز له بانتظار حافلة المدرسة وحده (حدث ذلك في اليوم الثاني على إضراب سائقي الحافلات عن العمل، وأراد الصبيّ أن يقوم بانتظار الحافلة وحده، أن يشعر بالاستقلالية والاعتماد على النفس عبر القيام بهذا الأمر البسيط). ولكن بعدها لم يره أحد. مهما كان ما جرى عليه، فقد حدث دون أثر يمكن تعقّبه. كان من المحتمل أنه قد خُطف، أو قُتل، أو ببساطة أنه ذهب ليتمشّى حتى تاه وجاء إلى حتفه في مكان لم يره فيه أحد. لا يمكن قول أي شيء تحت أيّة درجة من الوثوق سوى أنه اضمحلّ- اختفى عن وجه الأرض. لقد ساهمت الجرائد في صُنع هذه القصة (مقابلات مع الوالدين، مقابلات مع المحققين المعنيين بالقضية، مقالات عن شخصيّة الطفل: الألعاب التي أحبّ لعبها، والطعام الذي عشق تناوله). راح ((أ)) يدرك مدى تأثير هذه الكارثة على حياته- إنها تقوم بزيادة ثقل مشكلته الخاصّة، أي رغبته في التواجد مع ابنه بشكل دائم، وهي أقل كارثيّة بالطبع، ولكن تعاظَم تأثيرها عليه حتى أنه لم يعُد قادرًا على الهرب أو المراوغة. بدا له أن كلّ ما تقع عيناه عليه ليس سوى صورة لما يعتمل في داخله، إنه يسكب جوفه على العالم. تمضي الأيام، ومع كل يوم ينسحب خيط من الألم الداخلي نحو العلن. شعور بالفقد لم يكفّ عن الانغراس فيه، إنه عالق به ولا يتركه. ومرّت أوقات كان ألمه فيها هائلًا وخانقًا حتى ظنّ أنه لن يتركه إلى الأبد.

في آخر شهر يوليو، قرّر ((أ)) أن يقضي عطلة نهاية الأسبوع خارج المدينة. أرادَ رؤية ابنه، وكان في حاجة إلى الرّاحة أيضا. جاءت زوجته إلى مدينة نيويورك، تاركةً الصبيّ مع أبويها. لا يذكر ((أ)) ما فعلاه في المدينة ذاك اليوم، ولكنهما بحلول آخر النهار كانا قد تمكّنا من الوصول إلى شواطئ كونيتيكت، حيث قضى طفلهما النهار مع جدّيه. عندما أقبل ((أ)) على المكان، رأى طفله جالسا على كرسيّ الأرجوحة، وأوّل جملة قالها (بعد أن قضى جلّ النهار تحت قيادة جدّته) كانت عجيبة في سلاستها ووضوحها: «أنا سعيد لرؤيتك يا أبي».

وعلى الرغم من ذلك، فإن صوته بدا غريبًا على أذن ((أ)). تقصُر أنفاس الطفل بسرعة عنه، وينطق كلماته مُقطّعةً وفق مقاطعها الصوتية الأساسية. لم يشك ((أ)) ولو للحظة واحدة من أن هناك أمرًا مريبًا في الصّبي. ولهذا أصرّ فورًا على أن يغادروا جميعًا الشاطئ إلى البيت. وعلى الرغم من هِمّة الصبيّ وروحه العالية، فإن الصوت الطالع من جوفه، المريب والآلي، استمرّ في الانبعاث منه، وكأنه دمية تتحدث من بطنها. تسارُع أنفاسه كان واضحًا: يمتلئ جذعه كله بالهواء، ثمّ يفرغ، شهيق وزفير، شهيق وزفير، كما يتنفّس العصفور الصغير. وبعد ساعة على وصولهم البيت، راح ((أ)) وزوجته يقرآن دليل الهاتف بحثًا عن طبيب أطفال في الجوار (كان الوقت ليل الجمعة ساعة العشاء). وفي محاولتهم الخامسة من الاتصالات غير المجابة أو السادسة، رفعت السماعةَ طبيبةٌ شابّة كانت قد قطنت للتوّ البلدة للتدريب. ولحسن الحظ، صادف أنها لم تكن قد غادرت مكتبها تلك الساعة، فطلبت منهما المجيء حالًا. طريقتها في فحص الصبيّ أصابت ((أ)) وزوجته بالرّعب، ربما بسبب طبيعتها المتأجّجة، أو لأنها كانت جديدة على المهنة. فقد أجلسَته على

الطاولة، واستمعت إلى أنفاس صدره، وأحصت عدد أنفاسه في الدقيقة الواحدة، ولاحظت التهاب منخريه ومسحةً من الزُّرقة اصطبغتها بشرة وجهه. ثمّ هرعت إلى زاويةٍ من المكتب، وجلبت آلة تنفّس معقّدة: آلة بخار مقنّعة ذات غطاء من بقايا إحدى كاميرات القرن التاسع عشر. مانَعَ الصبيّ بقاء رأسه تحت الغطاء، وأرعبته هسهسة بخار الآلة. حاولَت الطبيبة حقنه بجرعة من الأدرينالين: «سنحاول علاجه بهذا»، قالت، «وإذا لم ينجح الأمر، فسنحقنه بجرعة أخرى». ثمّ انتظرت بضعة دقائق، وراحت بعدها تعيد حساب معدّل أنفاسه، ثمّ حقنته بالجرعة الثانية. لكن وضعه بقي على حاله، لم يتغيّر شيء. «انتهى الأمر»، قالت، «علينا نقله إلى المشفى حالًا». ثم أجرت المكالمات اللازمة لذلك. وبنشاط وطاقة مشتاطة، كأنها تحاول أن تلمّ الأمر كلّه في جسدها الصغير، أخبرت ((أ)) وزوجته كيف يتبعانها إلى المشفى، وأين يذهبان، وما الذي عليهما القيام به. ثمّ قادتهما إلى الخارج حيث انطلقا كلّ في عربته. كان تشخيصها هو أن الصبيّ يعاني من التهاب رئوي حاد، ومن الرّبو ومضاعفاته. وقد أثبتت الأشعة والفحوصات المخبرية في المشفى صحّة تشخيصها.

وُضع الصبي في غرفة خاصة من جناح الأطفال، تحمله الممرضات ويُحطنه برعايتهن، ولكنه يصرخ فيهن أثناء ما كان محلول العلاج يُسكب في حلقه، والمغذّي يقطُر في دمه، وهو في سريره الأشبه بسلّة ذات حواجز، وقد غُطّي بغلاف بلاستيكيّ شفّاف لا ينفذ إليه سوى رذاذ من الأوكسجين البارد القادم من أنبوب مثبّت إلى الجدار. لبث الصبيّ في تلك الخيمة ثلاثة أيام بلياليها. وقد سُمح لوالديه بمرافقته والبقاء معه طيلة تلك المدّة. راح الأبوان يتبادلان دور الجلوس عند

سرير الصبي، بحيث يُدخل الجالس رأسه ويديه تحت الخيمة ليقرأ للصبيّ الكتب، وليحكي له القصص ويبادله اللعب، بينما يجلس الآخر في غرفة قراءةٍ صغيرة مخصّصة للبالغين، مُراقبًا وجوه الآباء والأمهات الآخرين الذين يتواجد أطفالهم في المشفى. لا أحد من هؤلاء الآباء الغرباء يملك الجرأة على الحديث مع الغرباء الآخرين، فهم جميعًا يفكّرون في أمر واحد وحسب، ولن يزيده الحديث عنه إلا سوءًا.

كانت حالة الصبيّ مُنهِكةً لوالديه. فالمحلول الذي يقطر في عروقه مركّب بشكل رئيس من الأدرينالين، ممّا شحنه بكميّات من الطاقة الفائضة والنشاط الزائد، يفوق بكثير النشاط المعتاد لطفل في الثانية من عمره. لقد قضيا جلّ وقتهما في محاولات تهدئته، ومنعه من الجموح والقفز خارج خيمة الأوكسجين. كان لهذا النشاط أثر بسيط على ((أ))، إنه يستطيع تحمله. ولكن ما يثقله هو أمر المرض نفسه، وحقيقة أنهم لو لم يأخذوه إلى الطبيب في الوقت المناسب، لأخذه الموت منهم (والذعر الذي يتملّكه تمامًا عندما يفكّر: ماذا لو أنه قضى وزوجته الليل في المدينة، مولين ثقتهم جدّي الصبيّ للعناية به؟ والذين، بالنظر إلى ما بلغاه من العمر، لا يمكنهما الانتباه للتفاصيل الدقيقة، فهما لم يلحظا أنفاس الصبيّ الثقيلة عند الشاطئ، وقد سخرا من ((أ)) عندما التفت إلى الأمر وأتى على ذكره). كل هذا الذي يدور في داخل ((أ)) جعل من الصّراع الدائر بينه وبين ابنه النشيط لتهدئته لا شيء يُذكر. فبمجرّد أن يرد في الحسبان احتمال موت الصبي، مُجرّد أن تُلقى هذه الفكرة في وجهه وهو في مكتب الطبيب، كان كافيًا بالنسبة له ليأخذ أمر علاجه كحالة من التنسُّك، كمعجزة بزغت له من بطاقات الحظ.

ولكن زوجته، في المقابل، بدأت بالتوتر وأخذ منها الإجهاد مأخذه. ففي لحظة ما، خرجت من غرفة الصبي وذهبت إلى حيث يجلس ((أ)) في غرفة انتظار البالغين، وقالت له: «أستسلم، ما عدت قادرة على العناية به أكثر»- وقد كان في صوتها بعض الامتعاض من الصبي، بعض الغضب النابع من حقيقة أنها مُنهكة. ولكن ((أ)) ما إن شعر بذلك حتى انكسر شيء ما في داخله وتشظّى. لقد شعر بغباءٍ بأنّ عليه تعنيف زوجته على أنانيّتها، فانهار في تلك اللحظة كل الانسجام الذي كان ينمو بينهما طوال الشهر المنصرم من الانفصال المؤقت. ولأوّل مرّة خلال كل السنوات التي قضياها معا، يوليها ظهره وينقلب ضدها. خرج عاصفًا من غرفة الانتظار وذهب ليجالس ابنه عند سريره.

العدميّة الحديثة - فاصل عن قوّة الحيوات المتوازية

أثناء ذاك الخريف في باريس، حضر ((أ)) حفل عشاء أقامه صديق له يدعى ((ج))، كاتب فرنسيّ معروف. كان هناك أمريكيّ آخر غير ((أ)) في الحفل؛ طالبة متخصصة في الشعر الفرنسي الحديث، وتحدّثت مع ((أ)) عن كتاب كانت في صدد تحريره: نصوص مختارة للشاعر مالارميه. وسألت ((أ)) ما إذا كان قد ترجم إلى الإنجليزية قط شيئًا من كتاباته.

الحقيقة هي أنه قد فعل. قبل خمس سنوات، وبعد وقت قصير على انتقاله إلى العيش في شقّة تقع في ريفرسايد درايف، قام بترجمة بعض الشذرات التي كتبها مالارميه وهو يجلس إلى رأس ابنه الذي كان

يحتضر: أناتول. في عام ١٩٨٧، كتب مالارميه كلمات يلفّها الغموض والإبهام؛ إنها ملاحظات لقصائد لم يُكتب لها أن تكتمل أبدًا. وحتى أنها لم تُكتشف إلا في نهاية الخمسينيات. وقد قام ((أ)) بترجمة أوّليّة لأربعين مقطعًا منها أو خمسين. وعندما عاد من باريس إلى غرفته في شارع فيريك في ديسمبر ١٩٧٩، أي بعد مئة عام بالضبط على تخطيط مالارميه للملاحظات قصائد الموت هذه عن ابنه العليل، انتشل ((أ)) المسوّدات من نسيانها وبدأ بالاشتغال على نسخة نهائيّة من ترجمته لها. نُشرت لاحقًا هذه الترجمات في مجلّة Paris Review مصحوبة بصورة تخصّ أناتول مرتديًا بزّة بحّارة. هذا مقتطف من كلمتي الاستهلالية للترجمة:

((في أكتوبر ١٨٧٩، مات طفل مالارميه الوحيد، أناتول، في عمر الثامنة بعد علّة لازمته طويلًا. كان مصابًا بمرض روماتزم الأطفال، وقد تسلّل إلى أطراف جسمه وئيدًا حتى أتى على جسده الصغير كله. ولأشهر طويلة، جلس مالارميه وزوجته إلى سرير طفلهما شاعرين بعجز كامل عن المساعدة، في حين كان الطبيب يحاول تجربة أكثر من دواء وتطبيق أكثر من خطّة علاجيّة، باءت كلها بالفشل. أُخذ الصبيّ إلى الريف ثم أُعيد من جديد إلى المدينة. وفي الثاني والعشرين من أغسطس، كتب مالارميه إلى صديقه هنري رونجن: «صراع بين الحياة والموت يخوضه حبيبي الصغير.. ولكن الوجع الحق يجيء من احتمال أن طفلي قد يختفي عني إلى الأبد. أعترف أن هذا الأمر يفوقني، لست قادرا على مواجهته»))

أدرَك ((أ)) لاحقًا أن هذه الفكرة تحديدًا هي ما دفعته إلى العودة للنصوص. لم يكن القيام بترجمتها مجرّد فعلٍ أدبيٍّ محض. بل كانت طريقته للتنفيس عن لحظته الشخصيّة من الذعر الذي انتابه في مكتب الطبيب ذلك الصيف: «هذا الأمر يفوقني، لست قادرًا على مواجهته». أدرك ((أ)) لاحقًا أنه في تلك اللحظة تحديدًا استطاع أن يقبض على أفق الأبوّة: لقد عنَت له حياة ابنه أكثر بكثير من حياته، إذ لو كان موته ضروريًّا لإنقاذ حياة ابنه، فلن يجبن عنه. ولذلك، في تلك اللحظة وحدها من الخوف الطاغي، استطاع أن يكون، مرّة وإلى الأبد، الأب لابنه. فالقيام بترجمة تلك الأربعين شذرة أو نحوها لم يكن بالأمر المميّز في حدّ ذاته، ولكن بالنسبة له كان يوازي تقديم صلوات الشكر على حياة ابنه ونجاته. صلاة لمن؟ ربما للّاشيء، للعدميّة الحديثة.

كتاب الذاكرة

الكتاب السادس

لا يزال يجد بعض الأمور مدهشة حتى وإن أصبحت عادةً تتكرّر كل يوم: شعوره بأقدامه على البلاط، شعوره برئتيه تتسعان وتبلعان الهواء الذي يتنفسه، معرفته أنه إذا استمرّ في وضع كلّ قدم أمام الأخرى فسيصل إلى حيث يريد الذهاب. لا يزال يجد الأمر مدهشًا أنه بعد استيقاظه بقليل في بعض الصباحات، وعندما ينحني لربط خيط حذائه، يشعر بسعادة كثيفة تغمره، سعادة طبيعية جدًا، يحسّ بأنه في وئام مع العالم، بأنه حيّ في الحاضر، الحاضر الذي يطوّقه ويخترقه بخبر مبهج: إنه حي. يكتشف في داخله سعادة لا حدّ لها. لا يهم ما إذا كانت سعادة كبيرة حقا أم لا، فهو يجدها استثنائيّة، وهذا يبهجه.

أغنية لمرافقة كتاب الذاكرة: «العزلة»، كما غنّتها بيلي هوليدي مع الأوركسترا خاصّتها (Solitude, by Billie Holiday)، في تسجيل لها في التاسع من مايو، ١٩٤١ . مدّة الغناء: ثلاث دقائق وخمس عشرة ثانية. تقول: تتردّد عليّ في عزلتي/ تأخذني إلى غفوة من أيّام ماضية/ تتهكّم عليّ في عزلتي/ على ذكريات لا يمكن أن تموت... الخ. مع الإشارة

إلى جهود د. إيلينغتون، إي. دي لانج، وآي. ميلز.

استيهامات أولى بسماع صوت امرأة. تتبعها إشارات محدّدة لحوادث مشابهة.

لأنه يؤمن أنه لو كان هناك صوت للحقيقة- على افتراض أن هناك شيء اسمه الحقيقة، وعلى افتراض أن الحقيقة تستطيع الحديث- فلن يجيئ ذاك الصوت إلا من فم امرأة.

في الحقيقة، تأتيه الذاكرة أحيانًا على شكل صوت. إنه صوت يتحدث بداخله، وليس بالضرورة أن يكون صوته هو. ذاك الصوت يتحدث إليه بطريقة تشبه صوتًا يروي الحكايا على طفل، ورغم ذلك، في بعض الأحيان، فإن ذلك الصوت يسخر منه، أو ينبّهه ويجذب اهتمامه نحو أمر ما، أو يصبّ عليه لعناته بألفاظ مجهولة وغير محددة. وفي بعض الأوقات، يتعمّد الصوتُ تحريفَ الحكاية التي يرويها، يغيّر الحقائق وفقًا لنزواته، خادمًا حاجات الروح الدراميّة أكثر من روح الحقيقة. هكذا، يصبح عليه أحيانًا أن يتحدث بصوته إلى ذلك الصوت طالبًا منه التوقف عن العبث، يريد إعادته إلى الصمت الثاوي الذي جاء منه. وفي بعض الأحيان يغنّي ذاك الصوت له. وفي أحيان أخرى يهمس في أذنه. وتجيء أوقات لا يسمع منه سوى الهمهمة، أو التمتمة، أو البكاء والعويل على وجع ما. وحتى لو كان الصوت في حالة من عدم الكلام، فهو يعرف أنه لا يزال هناك، وأثناء هذا الصمت الذي لا يقول فيه الصوتُ شيئا، يجلس هو منتظرًا إياه أن يتكلّم.

الكتاب السابع

تعليق أوّل على سفر يونس

ينبهر المرء حال وقوعه على هذا السفر بسبب فرادته وغرابته عن بقيّة أسفار الأنبياء في التوارة المقدسة. هذا السفر القصير، والوحيد المكتوب بصوت الراوي الثالث، ينحو لأن يكون قصّة عن العزلة أكثر من أيّ موضوع آخر في الكتاب المقدس، ولكنها قصّة تبدو وكأنها قد قيلت من خارج تلك العزلة، وكأن الأنا عبر الغرق في ظلمة تلك العزلة قد محت نفسها. لذا لا تستطيع الأنا الحديث عن نفسها إلا بوصفها آخر. كما يقول رامبو: ((الأنا آخر)).

لم يكن يونس (يونان) متردّدًا في الكلام وحسب، كما كان النبي إرْميا على سبيل المثال، ولكنه رفض الكلام في الحقيقة وامتنع عنه. (وَصَارَ قَوْلُ الرَّبِّ إِلَى يُونَانَ بْنِ أَمِتَّايَ قَائِلاً: «قُمِ اذْهَبْ إِلَى نِينَوَى الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ وَنَادِ عَلَيْهَا، لأَنَّهُ قَدْ صَعِدَ شَرُّهُمْ أَمَامِي». فَقَامَ يُونَانُ لِيَهْرُبَ إِلَى تَرْشِيشَ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ...)

يهرب يونس. حجز له مكانًا على سفينة ركّاب. وراحت عاصفة غضوبة ترتفع في الأفق، وخاف البحّارة من الغرق. الجميع يصلّون، كلٌّ إلى ربّه، كي يصلوا البرّ سالمين. وأمّا يونس(فَكَانَ قَدْ نَزَلَ إِلَى جَوْفِ السَّفِينَةِ وَاضْطَجَعَ وَنَامَ نَوْمًا ثَقِيلاً). النوم، إذًا، بوصفه أقصى انسحاب

ممكن عن العالم. النوم بوصفه صورة للعزلة. ينكمش أوبلوموف على أريكة نومه، يحلم بنفسه عائدًا إلى رحم أمه. يونس في جوف السفينة. يونس في بطن الحوت.

عندما وجد قبطان السفينة يونس على حاله، طلب منه أن يصلّي إلى ربّه كي ينجيهم. كان البحّارة أثناء ذلك يلقون قرعًا لمعرفة أيّهم المسؤول عن هذه العاصفة. (فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى يُونَانَ).

(وَقَالُوا لَهُ: «لِمَاذَا فَعَلْتَ هذَا؟» فَإِنَّ الرِّجَالَ عَرَفُوا أَنَّهُ هَارِبٌ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ، لأَنَّهُ أَخْبَرَهُمْ. فَقَالُوا لَهُ: «مَاذَا نَصْنَعُ بِكَ لِيَسْكُنَ الْبَحْرُ عَنَّا؟» لأَنَّ الْبَحْرَ كَانَ يَزْدَادُ اضْطِرَابًا. فَقَالَ لَهُمْ: «خُذُونِي وَاطْرَحُونِي فِي الْبَحْرِ فَيَسْكُنَ الْبَحْرُ عَنْكُمْ، لأَنَّنِي عَالِمٌ أَنَّهُ بِسَبَبِي هذَا النَّوْءُ الْعَظِيمُ عَلَيْكُمْ»)

(وَلكِنَّ الرِّجَالَ جَذَفُوا لِيُرَجِّعُوا السَّفِينَةَ إِلَى الْبَرِّ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا، لأَنَّ الْبَحْرَ كَانَ يَزْدَادُ اضْطِرَابًا عَلَيْهِمْ).

(ثُمَّ أَخَذُوا يُونَانَ وَطَرَحُوهُ فِي الْبَحْرِ، فَوَقَفَ الْبَحْرُ عَنْ هَيَجَانِهِ).

لا تملك الأساطير المنتشرة عن الحوت أيّ دليل ضده. تلك السمكة الهائلة التي تبتلع يونس ليست وحشًا أو آلة دمار. بل على العكس، السمكة هي من أنقذت حياة يونس، أمسكته عن الغرق في البحر. (قَدِ اكْتَنَفَتْنِي مِيَاهٌ إِلَى النَّفْسِ. أَحَاطَ بِي غَمْرٌ. الْتَفَّ عُشْبُ الْبَحْرِ بِرَأْسِي. نَزَلْتُ إِلَى أَسَافِلِ الْجِبَالِ. مَغَالِيقُ الأَرْضِ عَلَيَّ إِلَى الأَبَدِ).

في أعماق تلك العزلة، التي تساوي النزول إلى أعماق الصمت، هناك رفض للكلام، وهو رفض يساوي الامتناع عن إدارة الوجه نحو الآخر

(فَقَامَ يُونَانُ لِيَهْرُبَ إِلَى تَرْشِيشَ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ)، أي بكلام آخر: الباحث عن العزلة هو باحث عن الصمت؛ من لا يتكلّم فهو إذًا يُدير وجهه بعيدًا ويصير وحده، وحده حتى الموت- واجه يونس ظلام الموت. فلقد أُخبرنا بأنه: (وَأَمَّا الرَّبُّ فَأَعَدَّ حُوتًا عَظِيمًا لِيَبْتَلِعَ يُونَانَ. فَكَانَ يُونَانُ فِي جَوْفِ الْحُوتِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَال).

وقد ورد في فصل من فصول كتاب الزوهار المُفسِّر للكتاب المقدس بأن (ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَال) تعني أوّل ثلاثة أيام يقضيها الرجل في قبره قبل أن ينتفخ بطنه وينبجس منه ما يحبسه. وعندما لفظ الحوت يونس إلى الشاطئ، فكأنه أعاده إلى الحياة من جديد، وكأن الموت الذي التقى به في جوف الحوت كان تهيئة لحياة أخرى، حياة مرّت عبر الموت، وبالتالي حياة يمكنها على الأقل أن تتكلّم. فالموت أرعبه حتى فتح فمه: (فَصَلَّى يُونَانُ إِلَى الرَّبِّ إِلهِهِ مِنْ جَوْفِ الْحُوتِ، وَقَالَ: «دَعَوْتُ مِنْ ضِيقِي الرَّبَّ، فَاسْتَجَابَنِي. صَرَخْتُ مِنْ جَوْفِ الْهَاوِيَةِ، فَسَمِعْتَ صَوْتِي)

في ظلمات العزلة التي يقبع فيها الموت، تنحلّ عقدة اللسان، وفي لحظة واحدة يندفع الدعاء، فيجد هناك الجواب. وحتى لو أنه لم يجد إجابة لما سأله، فلقد بدأ الرّجل بالكلام على الأقل.

الكذب هو أن يتحدث المرء مُخبرًا عن المستقبل لا عن عِلم، بل عن حَدس. لذلك فإن النبيّ الصادق يعلم، والنبيّ الكاذب يحدس ويخمّن.

وكانت هذه أعظم مشاكل يونس. إنه قادر على إيصال رسالة الرّب، قادرٌ على أن يخبر أهل نينوى بأن مدينتهم ستدمّر خلال أربعين يومًا جزاءً لهم على شرورهم، ولكنه كان متيقنًا من أنهم سيتوبون، وبالتالي

سيغفر الله لهم شرورهم ويعفو عنهم. إنه يعلم أن الربّ (رَؤُوفٌ وَرَحِيمٌ بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ)

(فَآمَنَ أَهْلُ نِينَوَى بِاللهِ وَنَادَوْا بِصَوْمٍ وَلَبِسُوا مُسُوحًا مِنْ كَبِيرِهِمْ إِلَى صَغِيرِهِمْ. وَبَلَغَ الأَمْرُ مَلِكَ نِينَوَى، فَقَامَ عَنْ كُرْسِيِّهِ وَخَلَعَ رِدَاءَهُ عَنْهُ، وَتَغَطَّى بِمِسْحٍ وَجَلَسَ عَلَى الرَّمَادِ)

لو غفر الله لأهل نينوي وأنجاهم من عقابه، أفلن يجعل ذلك من يونس نبيّا كاذبا؟ ألن يكون يونس، وقتها، قد كذّب نبوءته؟. وهنا تكمن المفارقة في قلب الكتاب: ستبقى النبوءة صادقة إذا لم يتكلّم يونس بها. ولكن بالطبع، حينها، لن تكون هناك نبوءة أصلًا، ولن يكون يونس نبيًّا لأحد. ولكن، من الأفضل ألّا تكون نبيّا أبدًا على أن تكون نبيًّا كاذبًا. (فَالآنَ يَا رَبُّ، خُذْ نَفْسِي مِنِّي، لأَنَّ مَوْتِي خَيْرٌ مِنْ حَيَاتِي)

لهذا، أمسك يونس لسانه عن الكلام. لهذا، هرب يونس من حضرة الرّب وواجه عذاب الغرق كحطام سفينة. ممّا يعني أخيرًا: «حُطام الانفراد».

الكتاب الثامن

بحلول وقت عيد الميلاد الثالث لطفل ((أ))، كان تذوّق الصبيّ للأدب قد بدأ بالاتساع والتطوّر من الكتب البسيطة المحتوية على إيضاحات وصور كثيرة، إلى كتب أكثر تعقيدًا بعض الشيء وجديّة. لا تزال الصور المصاحبة للكتب مصدرًا غنيًّا للمتعة، ولكنها لم تعد أساسيّة. باتت القصّة نفسها كافية لجذب انتباه الصبيّ كاملًا. وعندما يصل ((أ)) إلى صفحة لا صور فيها، يُبهجه النظر إلى وجه الصبيّ وهو يحدّق بانشداهٍ عجيب إلى الأمام، نحو لا شيء، نحو فراغ الهواء، نحو الحائط الأجرد، متخيّلًا الذي تقوله الكلمات. «من الممتع أن نتخيّل أنفسنا عميانًا»، قال لوالده مرّة وهما يعبران الشارع. وفي وقت آخر، دخل الصبيّ إلى دورة المياه، وأغلق الباب عليه ولم يخرج. سأله ((أ)) عبر الباب الموصد: «ما الذي تفعله في الداخل؟»، فقال الصبي: «أنا أفكّر.. عليّ أن أصير لوحدي كي أفكّر».

الكتاب التاسع

لسنوات طويلة من شبابه، اعتاش على الأجر الذي يجنيه من وراء ترجمة كتب لكتّاب آخرين. يجلس إلى طاولته قارئًا الكتاب الفرنسي، ثمّ يلتقط قلمه ويكتب الكتاب بالإنجليزية. إنه نفس الكتاب ويختلف عنه أيضًا في نفس الوقت. وغرابة هذه العمليّة لم تكف عن إبهاره ولو لمرّة واحدة. كلّ كتاب هو صورة للعزلة. إنه شيء ملموس يستطيع المرء التقاطه، ووضعه، يستطيع فتحه وغلقه، وكلماته تمثّل شهورًا من عزلة الكاتب، أو حتى سنوات. هكذا، يستطيع المرء أن يشعر وهو يقرأ كل كلمة من الكتاب بأنه يكشف تلك العزلة جُسَيمًا جُسَيمًا. رجل يجلس وحده في غرفة ليكتب. ولا يهم ما إذا كان الكتاب يتحدث عن الوحدة أو الصداقة والرفقة، فالكتاب نفسه نتيجة من نتائج العزلة. يجلس ((أ)) في غرفته ليترجم كتابًا لرجل آخر، وكأنه يدخل إلى عزلة ذاك الرجل ويحتلّها، يجعلها عزلته. ولكن ذلك مستحيل بالطبع. فبمجرّد أن تخترق عزلةً ما وتحتلّها، لا تعود تلك الحالة عزلة بعدها، بل شكلًا من أشكال الرّفقة. حتى ولو لم يكن هناك في الغرفة سوى رجل واحد، فهناك في الحقيقة اثنان. يتخيّل ((أ)) نفسه كشبح لذاك الرّجل المتواجد في الغرفة وغير المتواجد في نفس الوقت، حتى الكتاب هو نفسه كتابه وليس بكتابه بعد ترجمته. وهكذا، يقول لنفسه، يبدو من الممكن أن تكون وحيدًا وغير وحيد في اللحظة نفسها.

تُمسي الكلمة كلمة أخرى، ويصير الشيء شيئًا آخر. وبهذه الطريقة في العمل، يقول لنفسه، تعمل الذاكرة أيضًا. يتخيّل بُرجَ بابل عظيم في جوفه. هناك نَصّ يُترجم نفسه إلى عدد لا محدود من اللغات. تنسكب الجمل منه بسرعة الخاطرة، وكلّ كلمة تجيء من لغة مختلفة، يلغط ألف لسان بداخله في نفس الوقت، وضجيجها يتصادى في متاهة من الغرف، والممرات، والسلالم، وترتفع إلى آلاف الأدوار. يكرّر. في مساحة الذاكرة، كلّ شيء هو نفسه وهو شيء آخر أيضًا. ثمّ عبرت ذهنه فكرة أن كل شيء دوّنه في كتاب الذاكرة، كلّ شيء قام بكتابته حتى الآن، هو ترجمة للحظة من حياته أو لحظتين.. تلك اللحظات التي عاشها أثناء ليلة عيد الميلاد من عام ١٩٧٩، في غرفته على شارع فيريك.

فيما يخصّ قوّة الذاكرة

((تهجم الأفكار بشكل عشوائي، وترحل بعشوائيّة أيضا. لا آلة هناك للقبض عليها أو استعادتها. فكرةٌ هربت: كنت أحاول كتابتها، أمّا الآن فأحاول الكتابة عن هروبها))

باسكال

((وأنا في صدد كتابة أيّة فكرة تدور في رأسي، تنفلت مني أحيانا وتفرّ؛ ممّا يذكّرني دوما بضعفي ووهن حيلتي، وهذا ما أنساه دوما. إن هذا ليعلّمني بقدر ما تعلّمني إياه الفكرة الفارّة، لأنني أسعى أساسًا إلى التعرّف على فراغي الخاص، وعلى خوائي))

باسكال

الكتاب العاشر

عندما يتحدث عن الغرفة، فهو لا يقصد أبدًا أن يُهمل ذكر النوافذ.

اللوحات التشكيلية. أو انهيار الزمن إلى صور.

أُقيم معرض في الأكاديمية الملكيّة للفنون بلندن واستطاع ((أ)) زيارته. توجد من بين معروضاته عدّة لوحات رسمها الفنان موريس دينيس. وعندما كان ((أ)) في باريس، قام بزيارة أرملة الشاعر جان فولين بخصوص أنثولوجيا للشعر الفرنسي كان يُعدّها (مات فولين في حادث سيّارة عام ١٩٧١ قبل انتقال ((أ)) إلى العيش في باريس بأيام معدودة). تلك الأنثولوجيا هي ما أجبرت ((أ)) على العودة إلى أوروبا. وقد عرف بعد ذلك مباشرة بأن مدام فولين هي ابنة الفنان موريس دينيس، وكانت مجموعة لا بأس بها من لوحات أبيها معلّقة على حيطان شقتها. كانَت حينها في أواخر السبعينات من عمرها، وربما الثمانينات، وقد أُعجب ((أ)) بصلابتها الفارسيّة، وصوتها الأجش، وإخلاصها لأعمال زوجها المتوفى.

حملت إحدى اللوحات المعلّقة في شقتها هذا العنوان «مادلين في شهرها الثامن عشر»، وقد كتب دينيس ذلك على الجزء العلوي من

قماش اللوحة. إنها نفسها مادلين التي كبُرَت لتصبح مدام فولين، والتي سألت ((أ)) للتوّ أن يتفضل بالدخول إلى شقتها. وللحظة، دون أن تنتبه لذلك، وقفت مدام فولين أمام تلك اللوحة التي رُسمت لها قبل ثمانين عامًا تقريبًا. وبما يشبه قفزة هائلة عبر الزمن، رأى ((أ)) أن وجه الطفلة في اللوحة ووجه المرأة الواقفة أمامه كانا يتشابهان تمامًا. هكذا، في تلك اللحظة، شعر بأنه قد عبر خلال وهم الوقت الإنساني المحسوب، واختبر الزّمن كما كان عليه: ليس سوى رمشة عين. لقد شهد حياة كاملة تقف أمامه، وخلال لحظة واحدة رآها تنهار كلها في صورة.

أثناء محادثةٍ جمعت بين ((أ)) وصديقه ((و))، تحدّث الأخير عن شعور الرجل إذا شاخ. بلغ ((و)) السبعين من عمره، ضعفت ذاكرته، ووجهه مجعّد مثل كفّ نصف مغلقة. كان ينظر إلى ((أ)) برأس مرتعشة، وقال له مُشيرًا إلى أعراض الشيخوخة بخفّة دم ولكن بوجهٍ دون تعابير: «ما أغرب أن يحدُث هذا لطفل صغير!».

حقًّا، من الممكن ألّا نكبر. حتى وإن كنا نتقدّم في العمر، فبإمكاننا أن نبقى الأطفال الذين كنّاهم دائمًا. نتذكّر أنفسنا كما كنّا وقتها، ونشعر أننا لم نتغيّر. لقد جعلنا من أنفسنا ما نحن عليه الآن، ولكننا نبقى كما كنّا برغم السنين. نحن لا نشيخ بدافع ذاتي من أنفسنا، فالزّمن يدفعنا دفعًا إلى التقدّم في العمر، ولكننا نحن لا نتغيّر.

كتاب الذاكرة

الكتاب الحادي عشر

يتذكّر عودته إلى المنزل ليلة زفافه من عام ١٩٧٤، وزوجته إلى جانبه مرتديةً فستانها الأبيض. يتذكّر أنه عندما أخرج مفتاح الباب من جيبه، وأدخله في القفل ومن ثمّ أداره، شعر بنصل المفتاح ينكسر داخل القفل وهو يدير رسغه ليفتح الباب.

يتذكّر أنه في ربيع ١٩٦٦، ولم يكن حينها قد مضى وقت طويل على لقائه الأوّل بزوجته المستقبليّة، انكسر أحد مفاتيح آلة البيانو التي تمتلكها، وقد كان مفتاح «ف» فوق «س» الوسطى. وبعدها، في الصيف، سافرا معًا إلى منطقة بعيدة من ولاية مين. وفي أحد الأيام، بينما كانا يسيران إلى جانب بلدة شبه مهجورة، دلفا إلى قاعة اجتماعات قديمة لم يتم استغلالها لسنوات خلت. وجدا بقايا نادٍ رجاليّ لا تزال تقبع في أرجاء القاعة: ألبسة رأس هنديّة، وقوائم أسماء، وبقايا جلسات شرب. كانت القاعة مغبرة ومهملة، عدا آلة بيانو كانت تقف في أحد الزوايا. بدأت زوجته باللعب على المفاتيح (عزفت بشكل جيّد) واكتشفت أن كل المفاتيح كانت تعمل ما عدا مفتاح واحد، وقد كان «ف» فوق «س» الوسطى.

ربما في تلك اللحظة، بدأ ((أ)) يدرك بأن العالم ذاهبٌ في مراوغته إلى الأبد.

لو كان لصوت المرأة وهي تروي القصص قوّة أخذ الأطفال إلى ذاك العالم المتخيّل، فإنه يصحّ أيضًا القول بأنّ للطفل القوّة على جلب القصص إلى الواقع. يُقال أن المرء يغضب إذا لم يستطع أن يحلم في الليل. وبنفس الطريقة، لو لم يُسمح للطفل بدخول عالم الخيال، فلن يتمكّن أبدًا من القبض على الواقع. إن حاجة الطفل إلى القصص ترقى إلى مستوى حاجته إلى الطعام، وتتضخّم كالجوع تمامًا. «أخبرني قصة، أخبرني قصّة يا أبي، أرجوك..» فيجلس الأب بعدها ويروي القصص لابنه. أو يستلقي على الجانب المظلم من سرير الطفل، وكلاهما إلى جانب بعضهما، ثم يبدأ بالحديث، كأن لا يوجد في العالم سوى صوته، راويًا حكايةً في الظلام على مسامع ابنه. حكاية عن الجنيّات غالبًا، وأحيانًا قصص مغامرات. وهي ليست في النهاية سوى وثبة بسيطة إلى عالم الخيال. «كان يا ما كان، كان هناك طفل يُدعى دانيال..»، يقول ((أ)) لابنه دانيال. وهذه القصص التي يكون فيها الطفل نفسه هو البطل تنحو لأن تكون الأكثر إرضاءً له على الإطلاق. هكذا أدرك ((أ)) وهو يجلس في غرفته ويكتب كتاب الذاكرة، بأنه يتحدث عن نفسه وكأنّه شخص آخر لكي يستطيع كتابة قصّته. عليه أن يُغيّب نفسه كي يجدها في القصّة. وهكذا، فهو يقول ((أ)) في حين أنه يقصد أن يقول ((أنا)). فقصص الذاكرة هي قصص عن المرئيّات، مرويّةً بعَين المُشاهد. وإذا لم تعد أجزاء القصّة التي رأتها الذاكرة باقية في أماكنها من العالم، مما يعني استحالة أن تُحاك منها قصّة جديدة، فهناك على الأقل قصّةٌ عن رؤيتها في أماكنها السابقة. هكذا يستمرّ الصوت في جريانه. وحتى حين يطبق الطفل أجفانه ويغرق في النوم، يستمرّ صوت أبيه في الانبعاث من الظلام.

كتاب الذاكرة

الكتاب الثاني عشر

لم يعد قادرًا على الذهاب أبعد من هذا.

بناء مقترح لكتاب الذاكرة

((يجب علينا بكلّ تأكيد أن نتلمّس الآثار الأولى لخيال الطفل الإبداعي وأن نتعقّبها. إن أكثر ما يحبه الطفل ويشغف به هو اللعب. قد نستطيع القول بأن الطفل وهو يلعب يحاكي الكاتب في عمليّة الكتابة، أي أنه يخلق عالمه الخاص، أو بكلمات أكثر صدقا، يعيد ترتيب الموجودات في حياته بطريقة جديدة... وسيكون خطأ فادحا الظنّ بأن الطفل لا يأخذ عالمه هذا على محمل الجد؛ بل على العكس، إنه يلعب بجدّية تامّة ويصرف كمّا كبيرا من مشاعره في اللعب))

فرويد

((لا يغب عن ذهنك أن الضغط الذي تمارسه ذكريات الطفولة على الكاتب، وهو أمر قد يبدو غريبا، ينبع من فرضيّة أن عمليّة التخييل -مثل أحلام اليقظة- هي عمليّة بديلة عن اللعب في مرحلة الطفولة واستمرار لذاك اللعب))

فرويد

يراقب ابنه. يتبع الطفل الصغير بعينيه وهو يحوم في أرجاء الغرفة، ويسمع ما يقوله. يراه يلهو بألعابه ويصيخ السمع إليه وهو يتحدث مع نفسه. في كلّ مرّة يلتقط فيها الصبيّ أحد الألعاب، أو يدفع عربة على الأرضيّة، أو يضيف حجرًا إلى البرج المركّب الذي يكبر أمامه، يبدأ في قول ما يقوم بفعله، بنفس الطريقة التي يتحدث بها الراوي في فيلم، أو أكثر من ذلك، يختلق قصصًا لتصحب الحركات التي يجريها بالألعاب. كلّ حركة تُنشئ كلمة أو سلسلة من الكلمات، وكل كلمة تُطلق حركة أخرى: الانقلاب، الاستمرارية، ومجموعة جديدة من الحركات والكلمات. لا يوجد هناك مركز لما يفعله الطفل (إنّ كونه ذو مركز في كلّ مكان، ومحيطه اللامكان)، وإن كان هناك مركز فلربما يكون في وعي الطفل وحسب، والذي هو أساسًا في حالة دائمة من الانقلاب واستعادة الذكريات والمحادثات. لا يوجد هناك قانون في الطبيعة غير قابل للكسر: العربات يمكنها الطيران، والحجر يُمسي رجلًا، والميّت يعود إلى الحياة وبكامل عنفوانه. يندفع ذهن الطفل من شيء إلى آخر دون تحديد مسبق ودون تردد. «أنظر»، يقول لي، «إن قطعة البروكلي خاصّتي صارت شجرة. أنظر، هذه البطاطا خاصّتي أمست غيمة. أنظر إلى الغيم، إنه رجل سابح». وخذ هذه أيضا: قال لي ناظرًا إلى الأعلى وهو يتناول طعامه ويشعر به ينزلق على لسانه، ولمعة خاطفة تعبر عينيه: «هل تعلم كيف هرب بينوكيو ووالده من فم القرش؟»، ثمّ انتظر قليلًا، ليترك السؤال يغوص في داخلي. وبعدها همس: «لقد سارا على أصابع أقدامهما بهدوء فوق لسان القرش».

قضى وقتًا يعمل على كتاب الذاكرة، وكان أثناء ذلك يستمتع بمراقبة ابنه وهو يتذكّر الأحداث التي عاشها ويستعيدها. وكمثل الكائنات في مرحلة ما قبل تعلّم الكتابة، كانت ذاكرة الطفل مذهلة. لا حدّ لمساحة الاحتفاظ بالتفاصيل الدقيقة فيها، لا حدّ لقدرتها على رؤية شيء ما بتركيز يعزله عن محيطه ويهبه فرادته. اللغة المكتوبة تُعفي الحاجة لتذكّر أشياء كثيرة في العالم واختزانها في الذاكرة، لأن الذكريات تتخزّن في الكلمات. أما الطفل فهو يقف في مكان سابق لمجيء الكلمات المكتوبة، ويتذكّر بطريقة تشبه ما نصح بها شيشرون، بنفس الشكل الذي ابتدعه الكُتّاب الكلاسيكيّون: زواج الصورة بالمكان. في أحد الأيام، على سبيل المثال (وهذا مثال واحد مستلّ من عدد ضخم من الأمثلة)، كان ((أ)) يسير برفقة ابنه في أحد الشوارع. وقد صادفا أحد الأطفال الذين كانوا في نفس الحضانة التي يذهب إليها ابن ((أ))، واقفًا مع والده في دكّان (ردهة صغيرة) لبيع البيتزا. ابتهج ابن ((أ)) لرؤية صاحبه، ولكن الطفل الآخر بدا خجلًا من هذه المصادفة وأشاح بوجهه بعيدًا. «قُل مرحبًا يا كيني، قُل مرحبًا»، يشجعه والده، ولم يتمكن الطفل من استجماع نفسه ليلقي التحيّة سوى بصوت واهنٍ وبطريقة باهتة. بعدها، أكمل ((أ)) وابنه طريقهما. وبعد ثلاثة أشهر أو أربعة، حدث وأن كان ((أ)) وابنه يعبران نفس المكان معًا. وطرق سمع ((أ)) بغتة همهمة طفله وهو يهمس لنفسه بصوت بالكاد يسمع: «قُل مرحبًا يا كيني، قُل مرحبًا». آمن بعدها ((أ)) بأنه لو كان صحيحًا أن العالم ينطبع في أذهاننا، فإنه من الصحيح أيضًا القول بأن تجاربنا بدورها تنطبع على العالم. ففي تلك اللحظة، وهما يسيران بجانب ردهة بيع البيتزا، كان الطفل، حرفيًّا، يرى ماضيه. فالماضي، كما قال بروست، يندسّ مختبئًا في

الماديّات. ولذلك، فإن الترحّل في العالم هو بطريقة ما ترحّل في أنفسنا. بمعنى أننا في اللحظة التي نخطو فيها داخل الذاكرة، نخطو أيضًا داخل العالم.

إنه عالم مُضيّعٌ ضياعًا تصدم ((أ)) حقيقته الأبديّة. سينسى الطفل كل ما حدث له حتى الآن. لن يبقى شيء سوى ما يشبه بقايا اللمعة، وربما ولا حتى ذلك. آلاف الساعات التي قضاها ((أ)) برفقة الطفل خلال سنيّه الثلاثة الأولى، وملايين الكلمات التي تبادلها وإياه، والكتب التي قرأها عليه، ووجبات الطعام التي أعدّها له، والدموع التي مسحها عن وجنتيه- ذاك كله سيختفي من ذاكرة الطفل، سيُنسى إلى الأبد.

كتاب الذاكرة

الكتاب الثالث عشر

يتذكّر أنه اختار له اسمًا آخر في صباه، ((جون))، لأن رعاة البقر جميعهم يُدعون بهذا الاسم. اختار اسمه حتى أن أمه إذا راحت تناديه باسمه الحقيقي، يرفض أن يجيبها. يتذكّر أنه خرج راكضًا من البيت مرّة واستلقى في منتصف الطريق وأغمض عينيه، مُنتظرًا أن تدهسه عربة. يتذكّر أنه كان يظنّ الأرض مسطحة. يتذكّر كيف علّموه ربطَ حذائه. يتذكّر أن أباه كان يترك قمصانه في خزانة غرفته، وأن صوت حمّالات الملابس وهي تُزاح وتقرع بعضها بعضًا هو ما يوقظه صباحًا. يتذكّر أنه أراد يومًا أن يكون سنجابًا؛ أن ينمو له ذيل طويل ومنفوش وأن يستطيع القفز من شجرة إلى أخرى. يتذكّر أنه كان ينظر خلال الستارة المعدنيّة ناظرًا إلى أخته الوليدة قادمة من المشفى بين ذراعي والدته. يتذكّر أنه كان مستلقيًا في حوض الاستحمام مدّعيًا أن ركبتيه تلّتان وأن الرغوة البيضاء من حولهما مياه المحيط. يتذكّر اليوم الذي قال له والده أن يذهب إلى الخارج وأن يقود درّاجته الجديدة ذات الثلاث عجلات. يتذكّر أنه استمرّ في تبليل فراشه لوقت طويل، حتى صار في عمر أكبر من المتعارف عليه لفعل ذلك. يتذكّر أوّل مرّة دُعي فيها إلى النوم خارج منزله، في بيت صاحبه، وكيف أنه قضى الليل بطوله مستيقظًا من خوف أن يبلّل الفراش وأن يشعُر بعدها بالخزي؛ كان يحدّق في العقارب

الخضراء العشبيّة لساعة يده التي كانت هديّة عيد ميلاده السادس. يتذكّر أنه أمعن النظر في نسخةٍ من الكتاب المقدّس مخصّصة للأطفال، ولذلك فقد كانت ممتلئة بالصور. يتذكّر أنه واجه صعوبة في تصديق أن للرّب لحية بيضاء طويلة. يتذكّر أنه ظنّ أن الصوت الذي كان يسمعه في داخله هو صوت الرّب.

في ساعة متأخّرة من تلك الليلة

تلك الليلة، لأوّل مرّة في حياته، رأى حلمًا كان فيه ميتًا. استيقظ مرّتين أثناء الحلم، مرتعشًا من الذّعر. وفي كلّ مرّة، يحاول أن يهدّئ من روعه، وأن يُقنع نفسه بأنّ الحل هو أن يغيّر وضعيّة نومه على السرير، وبذلك سيختفي الحلم. بعدها، في كلّ مرّة يعود فيها إلى النوم، يبدأ الحلم تمامًا من حيث انقطع.

كلمات ختاميّة لكتاب الذاكرة

يفرد أمامه ورقة بيضاء على الطاولة، وبقلمه يكتب هذه الكلمات.

السماء زرقاء وسوداء ورماديّة وصفراء. السماء ليست هناك، وهي حمراء. حدث ذلك بالأمس. حدث ذلك قبل مئات السنين. السماء بيضاء. لها رائحة الأرض ولكنها ليست هناك. السماء بيضاء كالأرض، ولها رائحة الأمس. حدث ذلك قبل مئة عام من الآن. السماء زهرة ليمون ووردة وخزامى. السماء هي الأرض. السماء بيضاء، وليست هناك.

يصحو من النوم. يسير بين الطاولة والنافذة، ذهابًا وإيابًا. يجلس. يقف. يسير بين السرير والكرسي، ذهابًا وإيابًا. يستلقي. يحدّق في السقف. يغمض عينيه. يفتح عينيه. يسير بين الطاولة والنافذة، ذهابًا وإيابًا.

يقع على ورقة بيضاء نضرة، يفردها أمامه على الطاولة، وبقلمه يكتب هذه الكلمات.

كلمات كانت، ولن توجد مرّة أخرى. تذكّر هذا.

أحمد عبدالسلام العلي

شاعر ومُترجم من السعودية. وُلد في مدينة الظهران عام ١٩٨٦م. أنهى دراساته العُليا في علوم نَشر الكتب والمجلات في مدينة نيويورك، وأخذَ تدريبه عام ٢٠١٤-٢٠١٥ في أكبر شركة لنشر الكتب في العالم Penguin Random House في دار نشر Knopf. ترجَم إلى العربيّة مقالات من مجلات وصحف عالمية منها The New Yorker. وهو ضمن الفريق المشارك في مشروع (تكوين) لترجمة الكتب العالمية المهتمة بتقنيات الكتابة الأدبية ومهاراتها، وقد صدر عنه كتابان: (لماذا نكتب؟) و(الزّن في فن الكتابة).

التزم بكتابة مواد أسبوعيّة وشبه شهريّة لصحيفتي عكاظ والحياة، ونُشرت نصوصه في صحيفتَي العرب والشرق. شارَك في تحرير قسم الشّعر في مجلة (إلى)، وأسّس وأدار مجلة (غصون) الإلكترونية التابعة لموقع (منبر الحوار والإبداع)؛ اهتمّت المجلة بتعزيز ثقافة العدالة والحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان. كان عضوًا في لجنة فعاليات نادي المنطقة الشرقية الأدبي.

مُدوّنة نهر الإسبرسّو

https://alaliahmed.wordpress.com

إنستقرام

@al_ali_ahmed

لو أمكنني القول بأنني مررتُ بموقفٍ واحد كان الأشقَّ عليَّ من بين كل المواقف العصيبة خلال تلك الأيـام، فلن يكـون سوى تلك اللحـظة التي عشتها عندما مشيت عبر الحـديقة الأمـامية للمنـزل، تحـت المطـر الهـاطل، وكفّاي مملوءتان بربطات عنـق تخـصّ أبي، وقد كنتُ أهمُّ بإلقـاءها في شاحـنةٍ لجمع التبـرعات الخيريّة. إن لديه أكثـر من مـئة ربطـة عنق، هـذا مؤكد، فـأنا أتذكّر ها جيّدًا منذ طفـولتي؛ فأنمـاطها، وأشكالها التي رسخت في ذاكرتي المبكّرة، لا تزال صافيةً صفاء وجـه أبي. كـم كـان شنيـعًا أن أرى نفـسي مُلقيًا بها بعـيدًا كأنها كومةٌ من النفايات. لكنني حيـنها، في الـوهلة التـي أعقبت إلقائي بها إلى الشاحنة، اقتربتُ من الدمع وبكيت أخيرًا. قيامي برمي ربطات العنق تلك كان أشدّ عليّ من رؤيته في النعـش ويُنـزل داخل الأرض؛ مثـل رَمْي الرّبطـات عنـدي فكـرة الدّفـن استـوعبت أخـيرًا أنه مات.


ISBN 978-9938-880-43-4
9 789938 880434

Design by Mahdi Abdu